حوار

رئيس التحرير : توفيق صايغ

٥	توفيق صايغ	جبران وماري هاسكل :قصة علاقة
٤٩	جبران خليل جبران	رسوم غير منشورة
٥٣	يوسف غصوب	قصيدة (شعر)
٥٤	ابرام تيرتز	بخنتس (قصة)
٧٤	راشد البراوي	تيارات الفكر الاقتصادي في العالم العربي
٩٦	محيي الدين محمد	حرية الكاتب في مواجهة العواصف
١٠٩	سركون بولص	سيرة ناقصة (شعر)
١١١	عبد العال الحمامصي	قابيل يخنق القمر (قصة)
١١٦	انسي الحاج	الغربة بين النقد والاثر
١٢٣	ايرنست همنغوي	يتحدث عن فنه الروائي (مقابلة)
١٤٠	وضاح فارس	اسماعيل فتاح
١٤١	اسماعيل فتاح	رسوم
١٤٩	احمد رشدي حسين	بعيدا عن لعبة الكراسي الموسيقية
١٥٣	برهان الدجاني	« الاقتصاد الاسرائيلي »
١٥٥	مصطفى ع. شبراوي	قصيدتان طويلتان : البياتي وعبد الصبور
١٥٩	روزمري صايغ	مرايا مغبشة : العرب في الرواية الانكليزية
١٦٤	خيري شلبي	ثلاث مسرحيات

صورة الغلاف : « موضوع ملون » ، لوحة للفنان العراقي اسماعيل فتاح

« حوار » ٢٢ . السنة الرابعة العدد الرابع . ايار – حزيران (مايو – يونيو) ١٩٦٦

في هـذا العـدد

مقال «جبران وماري هاسكل : قصة علاقة» مبني على اوراق يزاح عنها الستار هنا لاول مرة في اية لغة ، وتضم ٣٢٥ رسالة من جبران الى ماري هاسكل وزهاء ٣٠٠ رسالة منها اليه ، وعددا وافرا من مجلدات اليوميات والمذكرات التي احتفظت بها ماري عن علاقتها بجبران طوال ثلاث وعشرين سنة حتى وفاته ، ويبلغ مجموع عدد صفحاتها معا ٧٠٠٠ صفحة. وسيظهر مقال آخر مبني عليها في العدد القادم. **توفيق صايغ** ، صاحب «ثلاثون قصيدة» و «القصيدة ك» و «معلقة توفيق صايغ» ، هو ايضا مدير هذه المجلة ورئيس تحريرها .

الدكتور **راشد البراوي** في طليعة المفكرين الاقتصاديين في الجمهورية العربية المتحدة . من مؤلفاته «دراسات في تاريخ مصر الاقتصادي» و «حرب البترول في الشرق الاوسط» و «الفلسفة الاقتصادية للثورة» و «النظام الاشتراكي من الناحيتين النظرية والعملية» . **محيي الدين محمد** ظهر آخر مرة في «حوار» ٢٠ ، وقد كتب مقاله الحالي بحثا مستقلا قائما بذاته ، لكنه يمكن في الوقت نفسه ان يقرأ كتتمة لمقاليه السابقين في العددين ١١/١٢ و ٢٠ .

نشرت «حوار» في عددها ١٧ طائفة من قصائد **انسي الحاج** ، وهي تنشر له الآن مقالا نقديا — والشعر والنقد هما الحقلان اللذان برز فيهما المؤلف ، بالاضافة الى ترجماته المسرحية المتعددة ، والى توليه تحرير «ملحق النهار» الاسبوعي في بيروت . يتابع **احمد رشدي حسين** كتابة «رسائله» ، التي تشكل بمجموعها سجلا دقيقا امينا مطلعا لاحداث القاهرة الثقافية .

المقابلة مع **همنغوي** حلقة جديدة في سلسلة المقابلات التي تنشرها «حوار» بانتظام مع ابرز ادباء ومفكري وفناني العالم — وقد تضمنت مقابلات مع ت.س. اليوت ولورنس ضريل وهنري ميلر والبرتو مورافيا وجان كوكتو وبيكاسو وازرا باوند وسيمون ده بوفوار وافتوشنكو ، ومع نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وجورج شحاده واوجين يونسكو ، ومع يوسف ادريس (بمناسبة فوزه «بجائزة حوار») . اجرى هذه المقابلة في ١٩٥٨ **جورج بليمبتون** رئيس تحرير مجلة «ذي باريس ريفيو» التي ظهرت فيها هذه المقابلة اولا والتي ننشرها هنا بالاتفاق معها .

شاعرا العدد : **يوسف غصوب**، الشاعر اللبناني، صاحب «القفص المهجور والعوسجة الملتهبة» و«قارورة الطيب» و «الابواب المغلقة» (انظر نقدا لهذا الاخير منها في «حوار» ١٧) ، وهو من الشعراء القلائل الذين يرضي شعرهم قراء الشعر ذوي الميول المختلفة. **سركون بولص** شاعر وقصاص عراقي شاب ، لم تظهر له مجموعات شعرية او قصصية حتى الآن .

في اليوم ذاته الذي صدر فيه العدد ٢١ من «حوار» وصلت المجلة قصة «بخنتس» ، غير المنشورة في اية لغة ، بالنص الروسي الاصلي ، للروائي والقصاص اندريه سنيافسكي الذي يكتب باسم مستعار هو **ابرام تيرتز** ، وهو احد الكاتبين اللذين تم سجنهما مؤخرا في روسيا واثار الحكم عليهما سخط الاوساط الثقافية في مختلف انحاء العالم. وقد قامت بترجمة القصة عن اصلها الروسي **آزا حديديان** ، التي ترجمت قصيدة برودسكي في « حوار » ١٥ ، واشرف على النص العربي فالح الجوهري. (جميع الحقوق محفوظة للسيد ج. جيبدرويتش، مجلة « كلتورا»، باريس).

القصة الاخرى في هذا العدد هي للقصاص المصري الشاب **عبدالعال الحمامصي**، الذي ستظهر له عما قريب مجموعة قصصية بعنوان «وسادة فوق القمر» عن الدار المصرية للتأليف والترجمة، والذي يعد حاليا كتابا بعنوان «مذكرات اديب من الاقاليم». **اسماعيل فتاح** فنان عراقي، درس الرسم والنحت في بغداد ثم صرف خمس سنوات في روما مبعوثا من الحكومة العراقية. وهو الآن استاذ في معهد الفنون الجميلة في بغداد .

سبق «لحوار» ان نشرت اكثر من مرة قطعا نقدية بقلم **برهان الدجاني**، المفكر الاقتصادي ورئيس الاتحاد العام لغرف التجارة والصناعة والزراعة للبلاد العربية . **روزمري صايغ** مراسلة مجلة « الايكونوميست » اللندنية الاسبوعية في الشرق الاوسط ؛ وكانت رئيسة تحرير مجلة «مدل ايست فورم» التي تصدر عن جمعية متخرجي الجامعة الامريكية في بيروت.

خيري شلبي احد كتّاب المسرح الجدد في القاهرة ، ومن نقاده الجادين . اعد رواية توفيق الحكيم «عودة الروح» للمسرح، بالاشتراك مع آخر ، وقد انتهى مؤخرا من كتابة مسرحية جديدة . **مصطفى ع. شبراوي** ناقد ادبي شاب من القاهرة ، معني بالشعر المعاصر بالدرجة الاولى . **وضاح فارس** فنان وناقد عراقي ، ظهرت تعليقاته النقدية على اكثر من فنان في الاعداد السابقة من « حوار » . لم ننشر باب « آفاق الحرية » في هذا العدد ، واستعضنا عنه بنشر قصة الكاتب السجين ابرام تيرتز. وستعود «آفاق الحرية» للظهور في العدد القادم.

جبران وماري هاسكل
قصة علاقة

توفيق صايغ

لاعترف ، منذ البداية ، باني في بحثي هذا عن جبران خليل جبران تنقصني مؤهلتان مهمتان : اولاهما اني بطبيعتي لست باحثا، وقد تجنبت دوما الابحاث والدراسات وعيا مني لامتناعها عليّ وادراكا مني انني ان نجحت فيها بعض النجاح فاني انما ارطن بلغة غريبة . وثانيتهما اني لست جبرانيا ، بمعنى اني لم ادرس نتاج جبران الدرس النقدي الصحيح ولم اعد الى قراءته من جديد بعد ان كنت قد قرأته قبل العشرين ، اي في الوقت الذي يؤخذ المرء فيه بجبران ، وبمعنى اني لست من المولعين بالنتاج الجبراني ، لا بالناحية الشعرية فيه ولا الادبية ولا الفكرية ولا الفنية ، واري ان الاطلاع عليه ، وربما التمتع به ، في طور مبكر من اطوار حياة المرء عندنا هو عارض لا بد ان يصاب به المرء ويضحي بعده بمنجاة من تكراره .

لاجل هذا وهذا اجدني مضطرا للاعتراف باني لم اكن لاكتب هذه الصفحات لو ان كتابتها كانت وقفا على متعة شخصية . لكني منذ العدد الاول لهذه المجلة وانا اتطلع الى نشر « ادب شخصي » فيها : ذلك انه ، من الالوان الادبية المختلفة المعروفة لدينا ، لا ينقصنا لون اكثر مما ينقصنا الادب الشخصي ، سواء اتخذ شكل مذكرات او يوميات او رسائل او اعترافات او محاورات . لاجل هذا عمدت ، منذ عدد « حوار » الاول، الى نشر مقابلة ادبية في كل عدد ، مع اديب عربي او اجنبي ؛ ولاجل هذا نشرت حزمة اليوميات التي جمعها الاستاذ جبرا ابراهيم جبرا من اوراق الفنان العراقي جواد سليم؛ ولاجل هذا ستظهر من حين لحين في الاعداد القادمة منتخبات من « دفاتر » بعض ادبائنا ؛ — ولاجل هذا هزني خبر مقتضب ورد قبل اشهر في احدى صحف الادب الامريكية الاسبوعية مفاده ان « عددا من الرسائل المتبادلة بين جبران وسيدة امريكية » موجودة الآن لدى « مكتبة جامعة من الجامعات في امريكا » .

ادركت ان في هذا الخبر تكمن بذرة مقال ، اكن محاولتي معرفة هوية السيدة الامريكية ، وعلاقتها بجبران ، وعدد الرسائل المتبادلة ، وتاريخها ، وطبيعتها ، واسم الجامعة التي اودعت فيها الرسائل ، باءت بالفشل. وعزيت ذاتي، ببراعة وقائية لا غنى عنها لكل رئيس تحرير يحمي نفسه بمادة دسمة لمجلته ويرأها تفلت من بين اصابعه ، بان الرسائل هذه قد تكون روتينية عادية ، وان عددها قد يكون قليلا ، وان المرأة قد تكون واحدة من الكثيرات اللواتي اكد لنا مؤرخو حياة جبران انهن كن يحومن حواليه طوال سنوات النصف الثاني من حياته ولا يميزها عن اترابها شيء .

وفي زيارة من زياراتي للقاهرة في الخريف الماضي التقيت الدكتور منح خوري ، الذي كان يقضي عاما كاستاذ زائر في الجامعة الامريكية فيها . وعوضا عن ان نتحدث عن شجون كثيرة كان بودنا ان نتحدث عنها بعد فراق سنين ، الفيتنا نتحدث عن هذه الرسائل ، التي كان قد خيل اليّ اني صرفتها عن ذهني الى غير رجعة . ذكر لي محدثي ان هذه الرسائل في مكتبة جامعة نورث كارولينا. واضاف انه قد حادث بشأنها اكثر من موجه ادبي في لبنان ، مؤكدا لهم ان المكان الذي لا بد ان تنشر هذه الرسائل فيه انما هو لبنان ، الذي منه خرج جبران واليه عاد ولو بعد وفاته . كان يحدثني بهذا حديث الغيور على نتاج ابنائه بلده ، وكانت قد بدأت ترتسم برأسي خطة الحصول على المواد والاستفادة منها : وكان اهم ما خرجت به من معلومات ، اهم حتى من اسم الجامعة المودعة فيها الرسائل ، هوية السيدة الامريكية . كانت ماري هاسكل.

وماري هاسكل ، كما يعرف كل من اطلع على حياة جبران، هي المرأة التي كان لها شأن في حياته لم يكن لسواها – على الاقل من حيث طول الزمن الذي عرفته فيه والعون الذي اسدته له. فهي التي عرفته منذ عامه الحادي والعشرين وظلت صديقته حتى وفاته ، وهي التي امدته بالمال ليذهب لباريس وليصرف الفترة التي صرفها فيها يدرس الفن ويكوّن مستقبل حياته الفني والادبي والفكري ، وهي التي طلب اليها الزواج (ولم تستجب الى طلبه) ، وهي التي اوصى لها بما في محترفه من صور وكتب وقطع فنية وآثار . ان رسائل تتبادلها وجبران لا بد ان تكون على جانب من الاهمية .

لكن الدكتور خوري لم يعرف عدد هذه الرسائل ولا تاريخها ولا نوعيتها. فكتبت الى القيم على المكتبة، وحمل جوابه ، هو والمراسلات العديدة التي دارت بيننا فيما بعد ، المفاجأة الثانية : ان الرسائل اكثر عدداً مما خيل ابدا اليّ ، فهي تضم ٣٢٥ رسالة من جبران الى ماري هاسكل وزهاء ٣٠٠ رسالة من ماري هاسكل الى جبران وجدتها ماري ما بين اوراقه في محترفه بعد وفاته ؛ وتتراوح في تاريخها ما بين ١٩٠٨ و ١٩٣١ (والواقع ان آخر رسالة في المجموعة كانت من ماري له ، كتبتها له قبل وفاته باربعة ايام فقط) .

ان كتاب « رسائل جبران » (الذي حرره الدكتور جميل جبر ، بيروت ١٩٥١) لا يضم سوى ٤٨ رسالة ، تحتل معا ٩٢ صفحة ، ويقول الدكتور خليل حاوي (« جبران خليل جبران في اطاره التاريخي وشخصيته وآثاره » ، بيروت ١٩٦٣) « انه يحوي الجانب الاكبر من رسائل جبران » . لكن الرسائل هذه المتبادلة بينه وبين ماري هاسكل هي حوالي ٦٢٥ رسالة ، تحتل معا ١٧٦٠ صفحة . كما ان رسائله في « رسائل جبران » موجهة الى عشرة اشخاص مختلفين ، كلهم رجال ، باستثناء مي زيادة التي كان نصيبها ثماني رسائل (ولو ان كتاب الدكتور جبر « مي وجبران » ، بيروت ١٩٥٠ ، يبدو انه يعتمد على اكثر من هذا العدد المحدود من الرسائل) .

لكن مفاجأة اخرى كانت تنتظرني . فقد ذكر لي القيم على المكتبة ان هذه الرسائل انما هي جزء من الاوراق التي في حيازته ، لا كلها ؛ وان ماري هاسكل اودعت عام ١٩٥٣ في المكتبة ، الى جانب هذه الرسائل ، كميات هائلة من الاوراق والمخطوطات والوثائق المتعلقة بحياتها ، وكثير منها بالطبع يتعلق بجبران . ولعل اهم ما في هذه الاوراق هو مذكرات ماري ويومياتها – وجانب كبير من هذه المذكرات واليوميات (المجلدات ٤١ – ٦٨) مكرس لجبران ولعلاقاتها معا ، ويضم سردا مفصلا جدا لاجتماعاتها وما دار فيها، ولسائر اقواله وآرائه ونشاطاته ومشاريعه . هذا بالاضافة الى عدد وافر من رسوم جبران وتخطيطاته الفنية، والى بعض مخطوطاته ، وصور فوتوغرافية ، وقصاصات ، واوراق مختلفة النوعية ، كبرقية مريانا لماري عن وفاة اخيها جبران، وصورة فوتوغرافية لميشلين – تملأ ٧٩ مجلدا ، وتحوي مراسلات مع مريانا ومع برباره يونغ مؤلفة « هذا الرجل من لبنان » ومع شارلوت تلر التي كانت صديقة لماري ولجبران ويرد ذكرها مرات عديدة في الرسائل واليوميات على السواء .

مادة ضخمة ، وجدت عندما وصلني ما انتقيته منها (الرسائل جميعها وكافة المجلدات المختصة) اني اوقعت نفسي في ورطة اشق من التي انتظرتها : فالمجموع العام لعدد الصفحات التي انتقيتها (وكثير منها باهت او بخط رديء او يصعب فك طلاسمه ، وقراءة الميكروفيلمات في احسن الحالات عملية مرهقة مضنية) والتي عليّ ان اقرأهـا ، وادرسها ، واقارن بينها ، واقدمها ، لم يكن في الواقع ينقص الا صفحات معدودات عن السبعة آلاف صفحة .

وتساءلت ، كما قد يتساءل القارىء ، او يحتاج الامر كل هذا العناء ؟ لكن ثلاثة اشياء كانت ببالي جعلت الجواب نعما مشددة : اولها ما ذكرته من شغفي بالادب الشخصي واهتمامي بان تنشر « حوار » نماذج متعددة منه ، وهـذه الرسائل والمذكرات والاوراق تمكنني وتمكن « حوار » من ذلك بابلغ شكل واوفاه. وثانيها ان جبران، مهما كان الرأي النقدي في نتاجه، شخصية وحضور وتاريخ لا يمكن التغاضي عنه، وحياته ، كما يقول الدكتور حاوي في كتابه عنه، هي التي تستدعي التعليق اكثر مما يستدعيه نتاجه ، وهذه الاوراق بوسعها ان تبدي مثل هـذا التعليق، خاصة وان وترا رئيسيا متكررا فيها هو جبران والحب ، و« حب المرأة » ، كما

يقول الاستاذ امين خـــالد (في « محاولات في درس جبران » ، بيروت ١٩٤٤) ، « هو الذي اوحى الى جبران آيات فنه والهمه اسلوبه البديـع » . وثالثها ان في هـــذه الاوراق معلومات على قسط كبير من الاهمية للدارسي جبران ونتاجه ، بالاضافة لما تقوله لنا عن حياته ، فلعل في تحدثي هنا عنها ، واخذ جوانب قليلة مجتزئة منهـــا دون جوانب عديدة اخرى ، تشجيعا على الاهتمام بنشر الاوراق بكاملها ليتسنى للباحثين والدارسين الاستفادة منها.

هـــذا الى ان هذه الاوراق تختلف عن اية وثائق كانت عندنا فيما مضى عن جبران ، وتمتـاز عنها بالكثير . يشكو الدكتور حـــاوي من ندرة الوثائق التي يمكن ان تساعد الدارس على فصل الاسطورة عن الواقع في جبران ، ومن ان جبران لم يخلف لنـــا يوميات او مذكرات افشى فيها مكنونات صدره او تعرض فيها للاحداث البارزة او حتى الاعتيادية في حياته ، ومن ان رسائله تـكاد تكون دوما ادبية الاسلوب وخالية من الاشارات الى الاحداث الواقعية، ومن ان رسائله الغرامية تخلو هي ايضا من الاعترافات والبوح ، ومن انه كان كتوما لا يفصح عن حياته الداخلية الحبية حتى لاقرب المقربين اليـــه . ويذكر ان الاستاذ ميخائيل نعيمة اقر في مقابلة اجراها معه الدكتور جبر وفي مقابلة اخرى اجراها معه هو ان جبران لم يحدثه قط عن قضايا حبه ، ويذكر الاستاذ نعيمة ذاته (« جبران خليل جبران : حياته ، موته ، ادبه ، فنه » ، طبعة ٣ ، بيروت ١٩٥١) انه فاته من اسرار جبران الكثير ، وان ما كتبه في سيرته لجبران عن حياته الحبية ، سواء بخصوص ماري او بخصوص ميشلين ، انما استقى مصدره من ماري — لكن الاستاذ نعيمة لم يلتق ماري الا بعد وفاة جبران ، اي بعد علاقة حب جبران وميشلين ، ان صحت ، بسبع وعشرين سنة وبعد اوج علاقة حب جبران وماري بسبـع عشرة سنة ، ولم يجتمع بها الا ساعات معدودات . فاذا ما قارنا هذا كله بالرسائل واليوميات التي بين يدينا بان لنا تميز هذه واهميتها . فالوثائق الآن وافرة ، وذكر الاحداث الواقعية والتعليق عليها مطرد ، والاعترافات دائمة ، وهي كلها كتبت بوحي الساعة وبدون اي تبريج او تنقيح،طوال ثلاثة وعشرين عاما،وان كانت اوفر واطول في العقد الثاني من القرن منها في العقد الثالث منه.

وفي معظم السير التي وضعت عن جبران ، في كتاب الاستاذ نعيمة وفي كتاب الدكتور جبر (« جبران : سيرته ، ادبه ، فلسفته ، ورسمه » ، بيروت ١٩٥٨ ؟) وفي كتاب السيدة برباره يونغ (« هذا الرجل من لبنان » ، نيويورك ١٩٤٦) ، نجد ان لونـــين مختلفين من الادب يمتزجان سوية بحيث يتعذر الفصل بينهما احيانا ، هما السيرة والرواية . فكثير من الاقوال التي وضعت على لسان جبران انما تصور المؤلفون تصورا ان جبران قالها ، وكثير من الاحداث التي ذكروها انما هي احداث روائية لا واقعية . هذا ما يشكو منه كتاب الاستاذ نعيمة بصورة خاصة، وما اشار اليه اكثر من ناقد فيما مضى . هنا ايضا يتبين لنا تميز هذه الاوراق التي بين يدينا ، التي لا نعرف فيها «عن» جبران ولكننا نعرف جبران نفسه ، وكلما فيها اما ثمرة قلمه هو بخط يده ، او هو نقل ، حرفي مباشر امين ، لما قاله .

ومع ان هذه الاوراق شاملة وافية ، تتعرض لاشخاص عديدين ، الا ان البطلين الرئيسيين فيها هما ، كما هو متوقع ، جبران وماري هاسكل . ويلاحظ ان اهمية ماري وعلاقتها بجبران لم تعطَ ، في الكتب المختلفة عنه ، المقام الذي تستحقه — بل ان السيدة برباره يونغ لا تذكر ماري الا في لحق الكتاب (ولو انه كان ينتظر منها ان تسهب في ذكر هذه العلاقة اكثر من سواها لانها عرفت عنها الكثير)، والاستاذ جوزيف شيبان، صاحب احدث كتاب عن جبران (« مرايا النفس » ، نيويورك ١٩٦٥ ، الذي وصل بيروت وانا منصب على كتـابة هذا المقال) يبخل عليها باكثر من نصف صفحة صغيرة ويبدو وكأنه يشكك حتى في مساعدتها لجبران ، ماليـا وادبيا . من اجل هذا تجيء هذه الاوراق التي بين يدينا وتعدل كفة الميزان الى مستواه العادل الصحيـح .

بقي ان اقول ان هذه الاوراق، اذ تسرد احداثا واقعية واقوالا واقعية، تسمعنا صوت جبران الصحيح وتشكل افضل صورة ذاتية له يمكن لنا ان نحصل عليها . اننا نرى فيها عقل جبران قيد العمل : نراه يقفز من فكرة لفكرة ومن موضوع لموضوع ؛ ويتحدث عن فنه وعن ادبه هو وعن الفنانين والادباء والمفكرين

الذين كان يقرأهم وعن رأيه في كل منهم ؛ نراه يرسم في هوامش رسائله واحيانا في متنها ، وعلى صفحات مفكرات ماري ، رسوما مصغرة للوحات التي كان يعمل عليها آنئذ ، ويفسر لها ما كان يفعله وينوي ان يفعله ؛ نراه « يجرب » باستمرار على ماري الآراء المختلفة التي سينثرها في مؤلفاته فيما بعد ، قبل ان يكتبها وقبل ان يعتنقها تمام الاعتناق . اننا نجد ماري هنا « التلميذة » الحقة ، تلتقط الحبوب والبذور دوما من فتاته - لكنها لا تكتفي بذلك : بل هي تضع البذور والحبوب لكي ينميها هو فتلتقطها هي ؛ انها تقتبس كل ما يقوله ، وعندما لا يقول تروح تلاحقه بالاسئلة الى ان يقول كل شيء عن هذا الموضوع او ذاك، فتسجل اقواله بامانة وبايمان. وهي لا تقتصر في وصفها على آرائه وافكاره ، وعلى رسومه التي تذكر شرحه لها مرحلة مرحلة ، بل تصف كل ما يتعلق به : تصف نوع قراءاته ولون قراءاته ، وتصوره كيف يرسم ، وكيف يتحرك ، وكيف يبتسم ، وينكت ، ويحمل عصاه ، ويأكل، تصف تهذيبه وعاداته ، وساعات عمله، وطريقة عمله، والصعودات والهبوطات في صحته،وملابسه ، وكمية اكله ونوع اكله ، وقلة نومه ، وكلامه وصوته ونبرته ، وطريقة جلوسه وهو يكتب، وعجزه عن الاسترخاء والراحة،وهي تقرأ شخصيته وتطوره من خطه ومن امائر وجهه (وتقارن بين تحليلها الحالي وتحليلاتها الماضية وتبحث في سبب اي تبدل تلاحظه).

ان هذه الاوراق تجيبنا على فيض من الاسئلة ؛ وربما كانت بعض الاجوبة معروفة، او بالاحرى مشتبها بها ، من قبل ، لكنها تذكرها هنا وتعطي الادلة عليها - كما انها تبوح باشياء كثيرة ، جديدة كل الجدة .

لا اريد نساء في حياتي

في « رسائل جبران » رسالة منه الى مي زيادة ، غير مؤرخة ، يقول فيها : « انا مدين بكل ما هو (انا) الى المرأة منذ كنت طفلا حتى الساعة . والمرأة تفتح النوافذ في بصري والابواب في روحي » .

علاقة جبران بالمرأة هي موضوع رئيسي لدى جميع الذين كتبوا عنه - وهي ايضا موضوع رئيسي في الاوراق التي ندرسها هنا . لكن بينما نجد مؤلفا (امين خالد) يرى ان المرأة وحبها هما عماد الادب الجبراني والفلسفة الجبرانية برمتها ، نجد مؤلفا آخر (يوسف الحويك « ذكرياتي مع جبران » ، تحرير السيدة ادفيك جريديني شيبوب ، بيروت ١٩٥٧) يصوره طوال اقامته في باريس ، وهو في عنفوان شبابه ، متزنا منسحبا مترويا في علاقته بالمرأة ، - بل ان الدكتور جبر يروي ان احدى الموديلات التي كان يستأجرها الحويك وجبران معا كانت « تثور غالبا على برودة جبران العاطفية نحوها فتردد في اذن الحويك : ان صاحبك لعاجز لا خير فيه » . فما الذي تقوله هذه الاوراق عن الموضوع ؟

في احدى رسائل هذه الفترة (١٩٠٩) ، يقول لماري انه يهرب هربا من كافة الاشياء التي يجد الرجال والنساء لذة فيها ، وانه متعب من كل الاكاذيب الخارقة التي يسميها الناس لذات . وفي ١٩١٢ تذكر له ماري ما وصل سمعها من اشاعات عن علاقاته بالنساء في باريس ثم في نيويورك ، فيقول محتجا : « اتدركين المقدار الذي حققته فعلا من العمل في السنوات العشر الاخيرة ؟ لقد كتبت ١٥ مجلدا من حجم « الاجنحة المتكسرة » ... بالاضافة الى اللوحات والرسوم . ان كل من يعرف هذا يعرف ان تحقيق ذلك لم يترك لي

متسعا من الوقت للعلاقات العاطفية . لقد كنت مشغولا جدا ». وتعلق ماري : « يضاف الى هذا انه خجول فيما يتعلق بالامور الجسدية . وكل من يعرفه ويهتم به ... يستطيع ان يرى ان خليل (اي جبران) لا يوجه اهتمامه نحو الجنس – لكنه يشغله بامور اعظم... وكما يقول هو ، انه يقولب طاقته الجنسية الى نتاج فني . ان ما يبقيه « عفيفا » ليس « الفضيلة » وانما هو المزاج ».

ويقول لها في ١٩١٣ ان اصدقاءه يخطئون فيما يظنونه به ، فهم يقولون ان له علاقات عاطفية متعددة « في حين اني اعيش بدون وصال جنسي » . وكان حديث مماثل قد دار بينهما في ١٩١٢ ، قال لها فيه ان كثيرا من اصدقائه، حتى اقربهم اليه ، يعتقدون ان بينه وبين بعض النساء علاقات ، في حين انه ليست هناك مثل هذه العلاقات ولم يحدث مثلها في سنواته الماضية الا مع عدد قليل جدا من النساء – تقول ماري : « وعرض ان يخبرني كم مرة حصلت مثل هذه العلاقات ، لكني رفضت » . وتضيف انه اخبرها ان العدد كان ضئيلا جدا بحيث انه يشعر على الدوام انه انما هناك ملائكة تقوم بحمايته .

وفي لقاء آخر في العام ذاته يقول لها انه ظل صبيا من الناحية الجسدية ، حتى وقت متأخر ، فهو لم يصل طور الرجولة النفسية الا قبل اربع سنوات او خمس . وانه كان خجولا، يصارع خجله ، وانه توصل الى الجسدي عن طريق الروحي والعقلي .

بعد سنين كثيرة ، في ١٩٢٢، يعود الى ذكر براءته الجنسية وتفسير اسبابها : « عندما تقوم علاقة جنسية ، فان حرية ما تضيع – ذلك ان الطرف الآخر يصبح له شيء من الحق عليك . هذا سبب من الاسباب التي تجعلني بدون اية علاقة جنسية مع امرأة ما ، وتجعل من المحتمل اني لن اخوض مثل هذه العلاقة في المستقبل » . ويروي لها كم من المتاعب يجرها عليه موقفه هذا : « الآن ، عندما ارفض علاقة مثل هذه – ذلك لان النساء يتقربن مني جنسيا – فاني اشرح لهن السبب على الدوام . احاول ان اقول لهن : لا ، بلطف ورقة . اقول لهن اني مشغول كثيرا، وغارق في عملي، وغافل عن كل شيء آخر، وان حياتي في الواقع هي في عملي . اما قبلا فكنت اكتفي بان اقول لهن : لا ، اتركنني وشأني ! »

الطهر الجنسي الذي لاحظت ماري اتصافه به ، يراه هو (١٩٢١)، في نطاقه الاوسع، البذرة التي تنمو منها الحضارة . ذلك ان الانسان عندما لم يكن يستطيع ان يعبر عن ذاته تعبيرا جنسيا حرا وكاملا، اطلق قواه وابداعه في سبل جديدة غير سبيل الولادة والانجاب، وغطى الجنس بامور اخرى. لاجل هذا نرى جبران يقرن بين الجنس والخلق ، ويقول ان الجنس، مهما اتخذ من اشكال ، شيء خلاق ، والرجل الخلاق هو دوما يحس بطاقة جنسية اقوى مما يحس بها سواه من الناس .

اكثر من مرة في هذه الاوراق نجده يتحدث عن احجامه عن العلاقات الجنسية والعاطفية ويشير الى حياته كحياة رهبنة. في ١٩١٤ يكتب لماري : « اني مستمتع بحياة الرهبنة التي احياها استمتاعا كبيرا » . ويكتب لها ايضا انه كلما تقدمت به السن (لكنه كان قد تجاوز الثلاثين قبل سنة فقط) زاد فيه ميله الى الرهبنة وعزمه عليها . وتقول ماري انها عندما اكدت له ذات يوم في ذلك الحين ان حياة الرهبنة التي يتحدث عنها ليست مجرد شيء في المستقبل ، بل انها قد ابتدأت فعلا — ابتسم .

احجام عن العلاقات الجنسية ، واحجام عن التعرض للجنس في احاديثه وقراءاته . فهو يذكر لها (١٩١٥) انه لا يتحدث عن الجنس مع احد ، حتى وان كان رجلا : «كل ما في الامر اني غير مهتم بالموضوع . بل اذا ما تحدث انسان طيب جدا ، بطريقة طيبة جدا ، وبشكل غير شخصي وعلمي ، عن الجنس ، فاني سرعان ما ابدل الموضوع . واعتقد اني قد قرأت عن الجنس اقل مما قد قرأ اي انسان آخر اعرفه » . ويكتب لها (١٩١٧) انه لم يتمتع قط بقراءة اي كتاب بموضوع الجنس ، وانه لم يتمكن قط من اتمام قراءة كتاب واحد حتى نهايته بهذا الموضوع . انما لماري وحدها كان يتحدث في هذه الامور ، وبتطويل وصراحة ، ويشي لها بكل مكنونات صدره واختلاجات جسده — لكنه لم يفعل الا بعد ان كانت قد انقضت سبع سنوات على بدء علاقتهما معا .

وكان يمقت التحليل النفسي الذي كان اذ ذاك قد اخذ ينتشر بسرعة في امريكا. ونقرأ اكثر من مرة عن نفوره منه ، وعن رفضه ان يحلل ، وعن قسوته في مناقشاته للمحللين. مأخذه الرئيسي عليه هو مبالغته في تحديد اهمية العامل الجنسي في حياة الانسان(١٩١٦).

لكن نقمته على نشاطات الجنس غير الطبيعية كانت بالطبع اشد واعنف . يهديه فرانك هاريس ، المؤلف الانكليزي الذي يكتب بدون رادع ، نسخة من مؤلفه « حياة اوسكار وايلد واعترافاته » . ويكون رد فعل جبران (١٩١٦) واضحا مباشرا: « لم اكن احلم قط ان مثل حمام الاقذار هذا موجود — لم اكن اتصور وجوده — لم اكن اعرف ان وايلد بمثل هذا الانحطاط . ان هاريس وسخ — وسخ من اوله الى آخره » . لكن آراء المرء تتطور ، والجبين تنحل تقطيباته ويرتاح . بعد عام واحد نسمعه يروي لماري : «لقد شهدت اليوم مشهدا كان في العادة يبعث فيّ النفور والاشمئزاز الفظيعين ، اما الآن فانه يبعث فيّ الاستغراب وحسب ، ولا استطيع ان افهمه . لكني لا ادينه ، واكتفي بمراقبته » . ويصف لها المشهد ، ويتعلق بشابين منحرفين جنسيا ، ويسألها ان كانت تستطيع ان تشير عليه بكتاب ما عن الشذوذ الجنسي عند الرجال. ويكرر انه قبلا لم يكن يستطيع ان يقرأ كتبا عن الجنس ، « اما الآن فاريد ان اقف على كل شيء ، واريد ان افهم كل شيء » . وتعطيه كتب هيفلوك اليس ، لكنها تكتشف فيما بعد انه ابتدأ

بقراءتها ثم هجرها . ويقول لها انه لسبب من الاسباب لا يحب ان يقرأها – انه يقرأ فيها قليلا ، ثم لا يريد ان يعرف اكثر .

ويقول (١٩١١) انه ايسر عليه مصادقة الرجال من مصادقة النساء ، لكنه (١٩١٤) يثق بالمرأة اكثر مما يثق بالرجل . ويتذمر (١٩٢١) من نيويورك ، ومن ان الحياة فيها لا تطاق : فعليه ان يقاتل الرجال ، « لان جميع الرجال نقاد » ، وعليه ان يقاتل النساء ، « لاني لا اريد نساء في حياتي » .

ويبدو انه لم يكن يبالغ كثيرا : فالنساء ملتفات من حواليه ولا بد له من ان يذودهن عنه ذيادا . قال لماري في ١٩١٣ ، وكانا يتحدثان عن موته (وهو موضوع غالبا ما كان يدور عليه الحديث ، منذ كان في اوج شبابه) : « اجل – وعندئذ ستأتي النساء ، وكل منهن ستقول لنفسها : كان حبيبي – مع انه لم يكن » . ولا تستغرب ماري ان تحبه النساء ، لانها ترى (١٩١٣) انه يمثل لكل امرأة انطلاقها . وتقول له (١٩١٥) ان توجيه النساء لرغباتهن صوبه هو شيء طبيعي ، وانها لا تحتقر النساء لاجله ، – وانه يجب الا يقلق هو « اذا كانت مبيضات امرأة ما تزعجها ، واسمح لي ان اتكلم بصراحة . قال خليل : يسرني ان اسمعك تقولين ذلك » .

نساء كثيرات من حوله ، لكنه يؤكد لها (١٩١٤) انه ليست له من صديقة سواها هي . واوراق الرسائل والمذكرات ، في جانب كبير منها ، تدليل حسي على صحة ذلك .

ميشلين المسكينة العزيزة

ماري هاسكل وميشلين هما المرأتان اللتان تحدث الباحثون عنهما ، منذ كتاب الاستاذ نعيمة ، اكثر مما تحدثوا عن سواهما فيما يتعلق باثرهما في حياة جبران . وقصة علاقة جبران بميشلين ، التي يسميها فليكس فارس (في «رسالة المنبر الى الشرق العربي» ، القاهرة؟ ١٩٣٨ ؟) « بيت القصيد من حياة جبران الخصوصية » ، كما وصلتنا من كتاب الاستاذ نعيمة ، يمكن اختصارها كما يلي : كانت ميشلين شابة فرنسية تدرّس في مدرسة ماري هاسكل ، وتعرف اليها جبران بعد لقائه لماري بوقت قصير جدا ، وسرعان ما قامت بينهما رابطة حب قوية ، وصلت قبل طويل نهايتها المحتومة ، – لاول مرة بالنسبة لميشلين وان لم يكن بالنسبة لجبران . ولما حملت منه ، اقنعها جبران مرغمة بالاجهاض (ويبين الدكتور حاوي ان الاستاذ نعيمة عاد فحذف هذه المقاطع من الطبعة العربية الثالثة لكتابه ومن نصه الانكليزي) . ثم ينقلها الاستاذ نعيمة ، ويجاريه في ذلك الدكتور جبر ، الى باريس بعد ان يكون قد جاءها جبران بفضل معونة ماري المالية . فتفاجئه ذات عشية في غرفته ، وتطلب اليه ان يتزوجها . لكنه يقترح ان تساكنه بدون زواج ، فتخرج باكية وتتوارى في الظلام – « ولم ترجع » ، يقول الاستاذ نعيمة . ويختم الدكتور جبر

سرده للقصة بقوله : « ولعلها توارت ليلذاك عن الحياة ».

وتثير قصة ميشلين وجبران هذه ، بشطريها البوسطني والباريسي ، نقمة فليكس فارس . فهو لا يستطيع ، او لا يريد ، ان يصدق انجبران قد تصرف تجاهها في باريس كما تروي هذه انه تصرف ، وانه تركها تلجأ « الى ماخور ... لتدنسه بتدنيس ذاتها ». غير انه لا يكتفي بهذا التشكيك بما روي انه حدث في باريس، بل يحاول ان يمسح الغبار عن تصرف جبران في بوسطن ايضا ويشكك في ان يكون جبران مسؤولا عن تعريف ميشلين الى الجنس ، ويشكك في ان ميشلين كانت عذراء الى ان عرفها جبران .

ويلاحظ الدكتور حاوي ان جبران لم يذكر ميشلين قط لاصدقائه ، وان ذكرها لا يرد مطلقا في اوراقه ؛ ويصل الاستاذ شيبان الى نظرية جديدة بشأنها : فيقول انه قام بجهد خاص ليتوصل الى حقيقة هذه الفتاة الجميلة ، وهل وجدت اطلاقا! يقول : ولما كان الدليل على انه كانت هناك فعلا فتاة اسمها ميشلين هو لوحة صورها فيها جبران ،واهداؤه لها احد كتبه ، فانه زارمتحف جبران في بشري ، فوجد ان اللوحة غير موقعة ،ولاحظ انه ليست ثمة اية مراسلات بين جبران وبينها؛ ووجد ايضا ان الكتاب المفروضان يكون جبران قد اهداه اليها،لا يحمل اسمها في الواقع. واضاف ان يوسف الحويك، في مذكراته عن حياته وجبران في باريس ، يذكر عددا من النساء اللواتي عرفهن جبران هناك ولا يشير قط الى فتاة اسمها ميشلين . ويخلص الاستاذ شيبان الى قوله : « لاجل هذا ، وحتى تتوفر لنا ادلة جديدة ، فاني سأتمسك بوجهة نظري من انه لم تكن ثمة فتاة اسمها ميشلين قط » .

اما نظرية الاستاذ شيبان هذه فانها تتهدممن الاساس في الحال ، لاننا نجد ذكرميشلين يتتالى في صفحات الرسائل والمذكرات (واحصاء سريع يشير الى ذكرها ٣٣ مرة فيها ، عدا المرات التي ذكرت فيها بمعزل عن جبران) .

بيد ان الاوراق لا تقول لنا شيئا عما دار فعلا من علاقة في ١٩٠٤ بين جبران وميشلين، لان بداية الرسائل انما هي في ١٩٠٨ والمذكرات المسهبة في ١٩١٠ ، وان كانت تشير مرة من بعيد الى العلاقة الماضية (في يوميات ١٩١٤ تقول ماري انها تحدثت وجبران عن ميشلين اثر زيارتها له ، وان جبران قد اصبح يستسيغها اذ ذاك اكثر مما كان يفعل فيما مضى ، وقد صار يعترف بصبيانيته يوم كان هو وميشلين على علاقة حميمة) .

واما حادث باريس ، فيبدو انه مختلق : فميشلين لم تلحق بجبران اليها ، وانما كانت في الواقع في باريس يوم ذهب هو اليها ، والتقيا فيها مرارا عديدة كان يذكرها لماري بانتظام في رسائله ، وبقيا على الدوام على صلة طيبة معا . واما خروجها تنتحب في الظلام، الى انتحار فعلي او الى انتحار رمزي ، فالحياة (هذه المرة على الاقل) لم تكن فيها عناصر الرواية ، وكانت اقل منها مفاجآت ومدهشات . فسنرى ان ميشلين ، مهما كان ما

حصل بينهما في لقاء معين ما (اذا كان قد حصل مثل هذا اللقاء) ، لم تمت ، ولم تُمت شيئا في ذاتها . وتابعت صلتها بجبران وبماري ، وتزوجت فيما بعد ، وانجبت ، وبدل ان يسدل على حياتها الستار في ١٩٠٨ او ١٩٠٩ او ١٩١٠ (سنوات اقامة جبران بباريس) عاشت بعد ذلك اعواما طويلة ، وماتت في امريكا حيث مات جبران ، في العام ذاته الذي مات فيه جبران ، بعده بستة اشهر .

في اول رسالة بين يدينا كتبها جبران لماري من باريس (١٣ / ٧ / ١٩٠٨) يذكر لها ان ميشلين هناك ايضا ، « ميشلين الحلوة التي هي ام صغيرة عزيزة وطفلة صغيرة عزيزة . انها في الواقع عون كبير » . ويقول انه قد استقر في غرفة صغيرة على مقربة من حيث تقطن ميشلين مع رفيقة لها ، وانها لسوء حظه ستترك باريس بعد اسابيع قليلة – « لكنها اذا كانت ستجد نفسها على المسرح ، كما اجد انا الآن ذاتي في باريس ، فلا بأس – وعليها الا تلبث هنا وعليّ الا اطلب اليها ان تلبث » . وقبل آخر الشهر يكتب لماري انها ستذهب لزيارة والديها . وفي اواخر ١٩٠٩ يكتب لماري : « وميشلين ، ميشلين المسكينة العزيزة . اتعرفين ، ايتها الحبيبة ماري ، اني لا اجد كلمة واحدة اقولها لها ؟ انها حلوة جدا وعزيزة جدا ، وصلاتي ان تجد سلاما وراحة في ظل رجل صادق طيب » . لكنه في ربيع ١٩١٠ يكتب عنها قائلا : « وميشلين ، ميشلين المسكينة العزيزة : انها اشبه شيء بمرآة ، فكل امرىء يرى فيها صورته هو . ارجو الا يحمل لها اليهودي الشقاء ، بان يرى فيها العناصر الغريبة التي في شعبه . انا سعيد بانها عادت الى التدريس ، وانا سعيد ايضا بانها بعيدة عن مماحكات البشر التي لا آخر لها » . ويسافر (١٩١٠) الى لندن برفقة امين الريحاني ، وحين يعود في الصيف يجدها في مرض شديد ، بسبب حلقها ، ويصفها بانها في غاية النحول والشحوب . وبعد شهر تتعافى ، وتترك باريس للريف ، بعد ان قاست كثيرا ، وهي ما تزال تفكر بحياة المسرح (وهو لا يقر ذلك) . وفي الخريف تعود لباريس لفترة قصيرة ثم تتركها لتدرّس من جديد.

ويعود هو في تشرين الاول (اكتوبر) الى امريكا ، ويحدث ماري عن زيارة قامت بها له هناك في ربيع ١٩١١ ، ويردف : « مسكينة ميشلين : ان آلهة الجحيم على الارض هائجة ، وهي لا تستطيع ان تسد اذنيها بالشمع ! » . ثم يرد ذكرها في يوميات ماري (١٩١٢) بمناسبة حوار يدور بينها وبين جبران حول جلد الانسان وكيف يعبر عن شخصية الانسان من داخله ، ويضرب لها جبران مثلا ميشلين ، ويتحدث عن جلدها المخملي جدا والكهربائي . وتزوره مرة اخرى في خريف العام ، ويصفها بالاشراق و « الفرنسة » ، ويقول ، في جملة معبرة تستلفت النظر ، ان فيها شيئا وطيدا ، شيئا حقيقيا « لم اكن قد رأيته قبل سنين عندما كنت شاعرا لحد كبير ورجلا لحد يسير » . ويصف سعادتها وحبورها

اثر زيارة اخرى تقوم بها له في ربيع ١٩١٣ ، ويجري ذكرها بعد ذلك ذكرا عابرا اكثر من مرة ، الى ان نقرأ عن زواجها من شخص اسمه لامار هاردي في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٤ . ونجد آخر ذكر اكثر من عابر لها في اواخر ١٩١٦ ، عندما يسأل جبران ماري عنها ويستطرد « بانها ستكون دوما فريدة ، وستكون دوما حسنة ، وانها سعيدة الحظ اذ لقيت هاردي » . بعد ذلك يمحي اسمها ، الا من اشارات غير مهمة ، والا من مفكرات ماري الاخيرة حيث تتحدث عن لقاءات متعددة بينها وبين ميشلين ، الى ان نسمع عن وفاتها . فبين الاوراق رسالة مطولة ، بتاريخ ٢٠ / ١٠ / ١٩٣١ ، كتبها لامار هاردي زوج ميشلين لماري ينبئها فيها باسهاب عن وفاة ميشلين وعن ايامها الاخيرة وعن مشاريعها ومشاريعه لابنتها ميشلين.

لقد اعطيتني الحياة ، بمعنى حرفي

قبل ان ننظر في علاقة الحب والصداقة بين جبران وماري ، يحسن بنا ان ننظر في الدور الذي لعبته ماري في حياته بمساعدتها اياه ادبيا وماديا . اما ان علاقتها به كانت ايضا علاقة خلاقة ادبيا ، فهذا ما تقوله بوضوح الكتب المختلفة عنه ، وان كانت برباره يونغ تخفف ، لا مباشرة ، من اهمية هذه الناحية ؛ وهو ايضا ما تقوله الاوراق هذه التي ندرسها .

في رسالة من اولى رسائله لماري من باريس (١٩٠٨) يكتب لها : « آمل ان يجيء الوقت الذي سأتمكن فيه من القول : لقد اصبحت فنانا بفضل ماري هاسكل » . اذ ذاك كان هذا « الفضل » فضلا ماديا بالدرجة الاولى نتيجة تمكينها اياه من الذهاب الى باريس ودراسة الفن واجراء اختباراته فيه . لكن هذه العبارة تكتسب مع الوقت معاني اخرى ، « فالفضل » يصبح فضلا خلاقا ، فضلا الهاميا نقديا مستفزا مشجعا مصححا هاديا . ويكتب لها في مناسبة اخرى من باريس انه ، في لوحة « الخريف » التي تقدم بها للعرض في الصالون ونالت القبول ، قد نقش في احد الاطراف حرفي اسمها « م. هـ. » ضمن دائرة ، ويؤكد : « وسأكتب هذين الحرفين ضمن دائرة على كل لوحة سأرسمها ؛ ولعل اولئك الذين سيرغبون في النظر الى رسومي سيفهمون ، يوما ما ، انها رمز الخير الحق والحب الحق والايمان الحق ». وبعد عودته الى امريكا نلاحظ باستمرار ان نقدها الفني لرسومه وتعليقاتها عليها كانت ذات فائدة وبهجة له . ويسألها متحسرا (١٩١٢) لماذا لم يعرفها وهو في الرابعة عشرة ، يوم كان يرسم خبط عشواء من غير هاد .

غير ان يد ماري عليه في هذا المضمار لم تكن في الفن قدر ما كانت في الكتابة . فكتبه واعماله الانكليزية العديدة لم تكن تصل ايدي الناشرين او محرري المجلات قط قبل ان تمر على يديها هي. كانت بداية ذلك يوم كانت (١٩١١) تصحح له رسائله الانكليزية ، وتطورت الى تصحيحها كتاباته الادبية ، مبتدئة (١٩١٤) بمقاطع من « المجنون » ومتدرجة بعده من

كتاب لكتاب . وفي الاوراق سجل تدريجي كامل ، وسياق لا يختلف : يكتب قطعة جديدة ، فيرسلها اليها للتصحيح والتنقيح ، فتفعل ذلك وتردها اليه مع تعليقاتها وآرائها ، فيقبل بتعديلاتها ، وتطلب اليه ان يعيد لها النص الاصلي بخطه هو لتحتفظ به لقيمته التاريخية . والسياق هو هو ، عندما كان يكتب بالعربية ويسبكان النص بالانكليزية ، وعندما اصبح يكتب مباشرة بالانكليزية. والسياق هو هو ، في كتاباته الثانوية ، وفي ما يعتبره الكثيرون قمة نتاجه ، « النبي » ، الذي تناولته بقلمها الاحمر فصلا فصلا ومرحلة مرحلة ، حتى عندما اصبح في طور الملازم المهيئة للطبع ، وفي آخر كتبه المتممة ، « التائه » ، الذي كتب لها قبل وفاته بخمسة وعشرين يوما يسألها « ان تري المخطوطة بعينيك الرائيتين وتضعي عليها يديك العارفتين قبل تسليمها للناشر » . وفي الرسالة التي كتبتها له قبل وفاته باربعة ايام نقرأ ان المخطوطة بين يديها الآن وانها سترددها اليه باسرع وقت .

اكثر من مرة نراهما يعملان معا على التأليف والوضع ذاته ، خاصة في السنوات الاولى لكتابته بالانكليزية . كما نراه يطلب اليها ان تستعمل حكمها وقلمها فتقص من مقطوعاته كل ما طاب لها ان تقص وتعدل فيها كل ما رأت لازما ان يعدل .

ان جبران من الادباء القلائل في تاريخ الادب الذين استطاعوا ان يكتبوا بلغتين مختلفتين ويحققوا مستوى عاليا في كل منهما . ولا شك انه مدين لماري هاسكل بالكثير في ما حققه بما كتبه بالانكليزية . لكنه كان عازما دوما على ان يكتب بالانكليزية ، وكان يهدف الى تقوية معرفته اللغوية وصقل اسلوبه الخاص ليتمكن من عمل ذلك . منذ ١٩١٢ نجده يتمنى لو يستطيع ان يفرز ستة اشهر من حياته ويكرسها لتعلم اللغة . ويبدأ بالدرس غير المنظم ، ويعمل جاهدا على تنقية لغته ومصطلحه واسلوبه . وسرعان ما يحمل ذلك ثماره ، ونسمع ماري ، في معرض تعليقها في ١٩١٤ على مقاطع من « المجنون » ساعدته على ترجمتها ، تقول ان لغته الانكليزية مدهشة وفيها صفات لم تكن هي لتمتلكها لو كانت تترجم عن الاصل . ويزيد حماسها له مع الايام ، الى ان تقول (١٩٢٠) « ان انكليزية خليل هي ارفع انكليزية اعرفها — لانها لغة خلاقة وبسيطة بساطة رائعة » . وتقول في العام ذاته ان في انكليزيته ابداعا لا تجد مثيلا له الا في اعظم شعراء الانكليزية وفي التوراة .

ووصفها هذا لا يختلف كثيرا عن وصفه هو — بتعديل مناسب : فيقول لها في ١٩٢٣ ان كل ما يعرفه من الانكليزية قد تعلمه من شيكسبير ومن التوراة ، ومنها هي . غير ان حسرة ظلت في قلبه فيما يختص بلغته واسلوبه الجديدين ، بالرغم مما حققه فيهما ومن الثناء الذي انصب عليه من ماري ومن قرائه الكثيرين وقارئاته الاكثر . يقول في ١٩٢٠ : « ان

لي اسلوبي الخاص باللغة الانكليزية - لكنني لن اتمكن قط من تغيير اللغة الانكليزية ، بالشكل الذي غيرت به اللغة العربية. ففي العربية قد خلقت لغة جديدة داخل لغة قديمة كانت قد وصلت حدا بالغا من الكمال - لم ابتدع مفردات جديدة بالطبع ، بل تعابير جديدة واستعمالات جديدة لعناصر اللغة » .

يقول لها ذات مرة في ١٩١٧ انه تتلمذ عليها ، انه طالب في مدرستها . والواقع انه لم يغفل قط عن الاعتراف بجميلها عليه وعن اعلانه بما لا يترك ادنى لبس . « انت اعطيتني هذه اليد » (١٩١١) ، انك تجعلين تفكيري ادفأ واصفى (١٩١١) ، لا ابدأ عملا حقا بدونك (١٩١١) ، «انت ام هذا الكتاب » (« الاجنحة المتكسرة ») (١٩١١) ، انت تنيرين لي ابهى الاصقاع فيّ ، ومع سواك لا افعل اكثر من ان اتلعثم (١٩١٤) ، انت عارضتي ، ووكيلتي ، ومحررتي (١٩١٤) ، لولاك لما كتبت « المجنون» (١٩١٤) ، «انا اومن بك للحد الذي اومن فيه بنفسي ، ولا اريد ان افعل شيئا لوحدي » (١٩١٤) ، يستحيل تماما ان اعمل شيئا بدونك (١٩١٥) ، ليالي الخلق التي عرفناها معا جعلتني واعيا لله (١٩١٥) ، « انك تعرفين النفس وهي تجتاز طور الحمل وطور الولادة » (١٩١٦) ، لا اعمل على كتاباتي مع اي شخص آخر (١٩١٨) ، « لم يكن بوسع احد ان يكتب «النبي» بدونك انت » (١٩٢٣) .

اجل ، لقد جاء الوقت ، كما توقع في رسالته تلك (١٩٠٨) لماري ، وصار بوسعه ان يقول : « لقد اصبحت فنانا بفضل ماري هاسكل » . ورغم مبالغاته في العادة ، الا ان ما قاله لها في احد ايام ١٩١٣ كان صحيحا وكانت صحته ستتضح وتثبت اكثر فيما بعد : « لقد اعطيتني الحياة ، بمعنى حرفي . لاني اعتقد اني كنت لاموت لو لم اتمكن من تحقيق هذا الانتاج » .

تعطين وتعطين ، كما الاطيار تغني

مؤلف « مرايا النفس » هو الوحيد من الكتّاب الذين تناولوا حياة جبران ونتاجه بالدرس ، الذي لا يقبل بدون تشكيك قضية مساعدة ماري هاسكل لجبران مساعدة مادية جزءا كبيرا من حياته . فهو يذكر انها « تكفلت بنفقات طريقه الى باريس ليتابع دراسته الفنية » ، لكنه لا يذكر الاعتمادات الشهرية التي كانت تخصصها له ، ولا المبالغ الاضافية ، ويقول ان الوصي على مخلفات جبران اطلعه على ان المرأة التي اعانت جبران ماليا « كانت امرأة ثرية اسمها ماري خوري » . ويفضل الا يصل الى قرار ، فيختم فصله الوجيز عن ماري هاسكل بالتساؤل: « ورغم هذا كله ، فان سر المرأة التي اعانت جبران ماليا يظل مستعصيا : اكانت ماري هاسكل ، ام ماري خوري - ام كلتيهما معا ؟»

ان ماري هاسكل ، بايمانها بجبران منذ البداية ، وبتسهيلها سفره لباريس واقامته بها ،

وبالمخصصات التي ظلت تصله منها شهرا بعد شهر مهما كان وضعها هي الاقتصادي ، وبالمبالغ التي كانت تغدقها عليه كلما استطاعت ، كانت يد خير اعترف بها جبران واقر بها اغلبية الذين كتبوا عنه . انها لو لم تفعل اكثر من ذلك لكان هذا كافيا لتخليد اسمها في حياة جبران ، فكيف وهي امدته بالعون الادبي الخلاق ايضا ، وقامت بينهما صداقة السنين الطويلة ، وذلك الحب الذي قام بينهما ؟ لم تكن علاقتها به علاقة شفيعة للفن والفنانين فحسب ، بل كانت هذه وكانت ايضا اغنى منها بكثير .

كانت ماري ميسورة الحال ، لكنها لم تكن بالمتمولة الكبيرة ، التي سيان عندها أأنفقت عليه مبالغ محدودة ام لم تنفقها . ومع ان جبران لم يكن الفنان الوحيد الذي استفاد من جود ماري ورغبتها في مساعدة الفنانين الواعدين (« اطفالها » ، كما تسميهم) ما استطاعت ، الا انه كان يدرك باستمرار ان ماري انما ترفع اللقمة عن فمها لتعطيها له ولسواه ، وانها من محبتها تعطي لا من الفائض عنها . « ألستِ تضحين تضحية كبرى كيما اتمكن من البقاء في باريس ؟ » ، يسألها في رسالة في ١٩٠٩ — « عندما قبلت تضحيتك قبل عام لم اكن ادرك مدى ضخامتها . لكنني ادرك الآن ، ايتها الصديقة الحبيبة . اني اسميها تضحية ، لكنها شيء اجمل من ذلك بكثير جدا — انها الحب كما الله ذاته يريده ان يكون » . وبعد ان يعود من باريس ، وتظل الاعتمادات الشهرية تأتيه بدون انقطاع او تأخير ، يشعر بانه يثقل عليها ، ويقترح عليها (١٩١١) ان توقفها عنه ، متبرعا بان يعمل في احدى الصحف ، حيث يمكنه ان يحصل ٤٠ او ٥٠ دولارا كل شهر . لكنها تؤكد له انها لن تقبل ذلك — « لا لشهر ، ولا ليوم ، ولا لساعة » .

كل شهر ٧٥ دولارا ، بالاضافة الى منح من حين لحين : « آه يا ماري ، لماذا ارسلت لي مزيدا من المال ؟ عندي كفاية . لقد اعطيتني اكثر مما احتاج قبل مجيئي (الى نيويورك) . لتبارك السماء يديك المفتوحتين » (١٩١١) . « ألم تعرفي ، ايتها الحبيبة ماري ، انه ما يزال لديّ في البانك مبلغ يكفيني لسنة ؟ انك تعطين وتعطين بدون حساب — تعطين كما الاطيار تغني . ليبارك الله قلبك ويديك » (١٩١٦) .

وعندما تنشب الحرب العالمية ، وينهمك جبران في نشاطات بعيدة عن الرسم والكتابة ويكرس ذاته لجمعية اغاثة المنكوبين في وطنه ، نرى ماري تهرع بدورها الى نجدته ، ونقرأ ، ما بين ١٩١٦ و١٩١٨ ، عن مناسبات عديدة تبعث له فيها بمبالغ مختلفة من المال ، منها هي ومن المدرسة ومن الطالبات ، ليرسلها الى المحتاجين في لبنان وسوريا .

واقترحت عليه مرة في ١٩١١ ان تبدل في اجراءات تقديم الاعتماد الشهري له ، فتعطيه ٥٠٠٠ دولار دفعة واحدة ، وهو المبلغ الذي كانت قد خصصته له في وصيتها . ولكنه رفض ، لانه يريد ان يعيش على اقل مقدار ممكن من المال كل شهر . ويسألها كيف تصاغ

الوصية بشكل قانوني ، بحيث يستطيع ان يسجل جميع صوره باسمها : « اذا متّ ، فاني لا اريد اي شخص آخر ان يلمس لوحاتي او ان يقول اي شيء عنها ، سواك انت . اريدها كلها ان تكون بين يديك . كيف افعل ذلك ؟ وكيف اعمل لتسديد المال الذي قد استنفدته ؟ لقد فكرت في الامر ، واريد في حال موتي ان يصبح انتاجي كله ملكا لك . ولك ان تقرري ما تشائين ، ومما تحصلينه منها تقتطعين الاموال التي صرفتها انا . واذا شئت في اي وقت فيما بعد ان تبيعي ايا منها ، فالامر لك ».

في ١٩١٣ كتبت له رسالة تتضمن اقتراحا مهما . قالت انها لو كانت ثرية لابتاعت جميع لوحاته فضمنت بهذا ان تبقى معا ولا تتفرق وتبتعد عنه . اما وهي ليست بثرية ، فهي تقترح ان يعملا ترتيبا بموجبه يسدد جبران جميع ديونه منها — بلوحاته . « فكل ما هو عملك وهو قانونيا ملكي ، يكون كما تعرف روحيا ملكك انت ، وما تشاءه انت بخصوصه اشاءه انا . ان المظهر الوحيد الذي افهمه انا من مظاهر التملك هو التحكم والسيطرة . وان امتلاكي انا للصور سيعني تحكمك انت فيها » . وتقترح ان يختار طائفة من لوحاته الاحب عليه ، وان يسعر اثمانها ، وينتقي منها ما كان سعرها يسدد ما قبضه منها بالاضافة الى ١٠٠٠ دولار رهنا للمستقبل . ويوافق هو على الفكرة في رده على الرسالة ، وعندما يلتقيان بعد ذلك باسابيع يقول لها : « اني اشعر بحرية جديدة ، بيقين ، منذ عملنا ذلك الاتفاق بخصوص الصور . ان عبئا قد انزاح عن كاهلي » . وتقول ماري انها هي تحس هذا الاحساس ذاته .

لكن هذه الصلة المادية بين ماري وجبران ، التي كانت مسؤولة عن نواحٍ كثيرة جميلة وخلاقة في العلاقة بينهما ، كانت ايضا مسؤولة عن بعض النواحي المرة في تلك العلاقة . وسنرى ، في موضع آخر من هذا المقال ، ما لعبته اعاناتها المالية له من دور في سوء التفاهم الذي عكر حبهما لفترة من الزمن .

هذا ونجد ماري تقوم على الدوام بدور المرشد له ، وتسدي اليه النصائح المختلفة . فاذا ما مرض (١٩١٢) رتبت له في الحال مشروع رحلة الى برمودا والجزر القريبة وحصلت له على جميع المعلومات عنها ، واذا ما اراد (١٩١٥) شراء اسهم في شركات مالية كانت هي خبيره المالي ، واذا ما قرر (١٩٢٤) ان يشتري حصصا في بناية لجأ اليها للمشورة . وهي تدبر له امر بروزة صوره ، وتكتب له عن دهان الشعر الذي ينبغي ان يستعمله ، وتشدد له على اهمية الهواء النقي في الستوديو ، وتهديه اربطة العنق . بل انها بعد وفاته لا تنقطع عن المساعدة والنصح ، وتجد ان اخته مريانا في حاجة اليها امسّ مما كان هو . فتكتب لها باشاراتها ونصائحها عن بيع الحصص في البناية ، وعن التصرف بمحتويات الستوديو ، وعن قضية نقل جثمانه الى لبنان ودفنه فيه ، وعن ضرورة وضع وصية لها قبل سفرها —

وعن عدد وافر من المواضيع المماثلة . ولا تنسى ، في خضم هذه المواضيع والمشاكل الناشئة عن وفاة جبران وبلبلة اخته وفجيعتها هي، ان تختم رسالة (١٩٣١) منها لمريانا بقولها : « واذا كنت ما تزالين تقحّين ، فالرجاء ان تجربي سيداتول . فهو لا يضر ، وهو اروع دواء ناجع عرفته قط » .

اريد ان احَب ، ان اعبَد

لم تكن ماري ، ابنة البلد الذي وفد عليه جبران وابنة اللغة التي راح يكتشف مجاهلها، والتي تكبره بسنين ، مجرد عون له ، خلقيا وماليا وعمليا وفي سائر الشؤون الصغيرة التي كان بوسعها ان تمد له فيها يد العون . لكنها كانت ايضا ، وفي الوقت ذاته ، التلميذة الوفية له ، والحوارية المؤمنة به باخلاص ، والمشجعة له على الدوام بكل ما اوتيت من سبل .

منذ اليوم الاول الذي التقته فيه، آمنت به وبعمله . فيما بعد اخذت ترى ان هذه الثقة النهائية به ليست منبعثة عن **ايمانها** به ليس الا، لكنها منبعثة بالدرجة الاولى عن **معرفتها** له (١٩١١) . كل ما يقوله لها فهو صدق ، وكل آرائه حق وصواب . جميع المبالغات ، التي سنجيء على ذكر بعضها ، تبلعها كاملة من غير ماء . نصه لتاريخ اسلافه، ولتاريخ اسرته وصباه ، مقبول لديها ؛ رؤى المسيح حرفية؛ دوره في الحركة القومية لبلده كأنها تقرأه في صحيفة موثوقة من صحف الصباح — وتتذمر من مواطنيه الذين يروي لها انهم لا يشاركونه كافة آرائه : « كم هم شرقيون ابناء شعبه — الذين لا يعتنقون افكاره هو » (١٩١٢) . وتعتقد ان كل كبيرة وصغيرة يقولها او يعملها سيكون لها صداها في المستقبل، فعليها تسجيلها والاحتفاظ بها ، امانة له وامانة للتاريخ . كلما ارسل لها مقطوعات للتصحيح طلبت ان تحتفظ بالاصول بخط يده ، وكلما رسم خطين على ورقة مهملة اضافتها لاوراقها كنزا صغيرا ، وكلما ذهبا الى مسرح سجلت كل خاطر يجول ببالها على برنامج المسرح وابقت به بين مذخراتها .

وهي واثقة من ان فضلها هي انها اول المؤمنين، وان العالم كله سيرى رأيها فيه بعد حين، وسيضمه الى صدره ، فنانا وشاعرا وكاتبا ومفكرا ومصلحا اوليا . « احيانا ، يا خ.ج.، عندما اقبّلك فاني استدعي عصورا عديدة من عصور المستقبل ، لكي تقبلك هي عبر شفتيّ انا ، لتعرف انت انها تحبك » (١٩١٤) . وعندما يصدر « النبي » ، وتصبح الامكانيات انجازات والوعود اثمارات ، تكتب له ، من رسالة نشوى (١٩٢٣) : « ان هذ الكتاب سيعدّ واحدا من كنوز الادب الانكليزي. وسنفتحه في ظلمتنا وفي ضعفنا لنجد انفسنا من جديد ، وما في داخلنا من سماء وارض . ان اجيالا كاملة لن تستنفد ما في الكتاب — بل ان جيلا بعد جيل ، سيجد فيه ما سيحب ان يجد — وسيحبه اكثر فاكثر تبعا لزيادة النضج في البشر . لم يُكتب قط كتاب فيه من الحب ما في هذا الكتاب — على

الاقل باية لغة معروفة لديّ — بل في اية لغة اطلاقا على ما اعتقد . وسبب ذلك انكانت اعظم محب كتب قط . لكنك تعرف ، يا خليل ، ان الشيء ذاته يحدث في النهاية ، سواء ااحترقت شجرة وتآكلها اللهيب ام سقطت بصمت في الغاب واضحت غبارا . وهكذا فان لهيب الحب فيك يلتقي هو والدفء الاقل المكرر في عدد كبير من الناس الذين يهتمون بك — وبذا فانك تشعل حريقة كبيرة ! ذلك لان عددا اكبر واكبر من الناس سيحبونك مع مرور السنين ، الى ما بعد ان يصبح جسمك ترابا بوقت طويل طويل . سيجدونك في نتاجك ، لانك فيه بشكل مرئي كما الله فيه » .

ولانها مؤمنة به كل الايمان ، فانها ، رغم حبها له ورغم حس التملك الذي كثيرا ما يكون جزءا من الحب لا ينفصل عنه ، لا تريد الاحتفاظ به لذاتها فحسب ، بل تريده ، قبل كل شيء وفوق كل شيء ، ان يحقق ذاته ويؤدي رسالته . تريده مكرسا لفنه ولفكره ، ومكرسا لوطنه وقضايا وطنه . هذا هو المهم ، وكل ما عداه ، حتى بقاؤه معها ، ثانوي .

كم من آراء جبران ، في كل مرفق من مرافق الحياة وفي الفن والفنانين والشعر والشعراء والفكر والمفكرين ، لم نكن لنعرفها قط لولا ان استفزته ماري لاعطائها وسجلتها لنا بامانة في اوراقها . في يومياتها لعام ١٩١١ تذكر سهرة دارت فيها احاديث متشعبة طويلة ، ثم تعاتب ذاتها فيما بعد لانها تكلمت كثيرا ، بدل ان تعمل جاهدة على جره هو للتكلم ، ولتسجيل ما كان ليقوله لو هي افسحت له المجال .

مؤمنة به الايمان كله ، ومطلعة اياه باستمرار على ايمانها هذا . لا التلميذة فحسب ، بل التلميذة المتغنية ابدا بفضائل المعلم . « ليظل الله يتكلم كلماتك ويرسم رسومك ويحيا حياتك معك ، كما يفعل الآن ، ايها الحبيب خليل » (١٩١٤) . « ان ما انت ، قد جعلني افكر : الا يتطور البشري الى ما هو بعد البشري في آخر الامر ؟ ... الست انتقالا ... وانبثاقا؟ (١٩١٥) . « ان خليل واحد من افراد الزمرة التي تضم فيمن تضم المسيح وبوذا و مايكلنجيلو وشيكسبير وسواهم ممن هم بالعظمة ذاتها » (١٩١٥) . « اني اثق به ثقة مطلقة لا حد لها ... عندما لا اثق به يضطرب فيّ كل شيء ، وتعود ثقتي به فتصفي الامور في الحال... ان الثقة به امر غير وارد ، كالثقة بالله : فكلمة ثقة بحد ذاتها تتضمن امكانية عدم الثقة . انه حقيقي كما الاشجار والنجوم حقيقية — ومثلها هي لا يستدعي عدم الثقة » (١٩١٢) . وعندما يقول لها (١٩١٤) : « اريدان احَب ، ان اعَبد ، مدى قرون » ، تقول معلقة : وسيحَب ويعَبد مدى قرون . ونقرأ في هامش في مجموعة الرسائل ان رسائل جبران لها بتاريخ ٨ و٢٢ و٢٣ تموز (يوليو) ١٩١٤ فقدت منها في ٣ آب (اوغسطس) عندما سرقت محفظة يدها التي كانت فيها الرسائل وهي في قطار . « لكني كنت احفظها عن ظهر قلب — وهذه اعادة دقيقة لها من الذاكرة » .

ونراها تصف باسهاب زياراتها ، معه او لوحدها ، الى المعارض والمتاحف ،وتعليقاتها على اللوحات والتماثيل ، وتقول انهـا ترى القطع الفنية الآن في ضوء جديد ، بفضـل تعليم جبران لها . ويحدثها مرارا عن مواضيـع مختلفة ، دينية وادبية وتاريخية ، لا تعرف عنها الكثير ، فتتعلم منه ، وتسجلها جميعها في دفاترهـا ، كأنها تكتب فرضا مدرسيا . وفي رسائله كذلك الحال كثيرا ما نراه المعلم ، وهي التلميذة المصغية التي تطمس شخصيتها هي لتقبل ما يقوله معلمها. اي موضوع يكتب لها عنه يصبح مجالا للنقاش وللاخذ والرد طوال رسائل عديدة. كل كلمة يقولها لها، خاصة انها دارت على الله او النفس او الكون او المطلق او الجمال ، تصبـح انجيلا تتقبله في الحـــال وتستوضحه عنه اكثر . فقراته عن الروح والغيبيات تهزها كما كانت لتهزها فقرات غزلية جامحة.

لكنها ، لتكون تلميذة مثالية ، لتعرفه معرفة تامـة ، يجب ان تزيـح العائق العنيد بينهما : اللغة. وهذا عن طريقين: اولهما جره هو اليها ، بواسطة مساعدتها له ما استطاعت ان يكتب بالانكليزية ، كما رأينا من قبل ؛ والآخر ،وهو الاشق عليها ، ان تنجر هي اليه، بواسطة تعلمها للغته .

كان تعلم العربية فكرة راودتها منذ وقت مبكر في علاقتهما معا. لكنها كانت لا تعير اهتماما كبيرا لاخراجها الى حيز التنفيذ ـ بل كانت تقصيها عنها بنصف دعابة ، مؤملة ان تتعلمها في حياة قادمة بعد التقمص التالي . لكنها منذ ١٩١٢ لم تعد تكتفي بذلك ،وارادت ان تنال نصيبها من معرفة جانب رئيسي في جبران غامض عليها، في الحياة الحاضرة ايضا. فعولت على تلقي دروس بها . نقرأ في اليوميات (١٩١٢) انهـا كانت ترغب في المجيء الى بيروت لتلقي الدروس العربية في « جامعة خليل في بيروت» (تقصد بها معهد الحكمة)، لكنها تبدي اسفها حين يخبرها جبران انها ليست مفتوحـة للنساء . وتكتب له في ١٩١٣ انها ان لم تفلح في تعلم العربية في بوسطن فستذهب لتتعلمها في القسطنطينية او سوريا . وتزيد اصرارا ، وتفكر بترك مهنة التدريس ، التي مارستها منذ قبل تعرفها الى جبران ، بقصد العكوف على درس العربية ، كيما تتمكن من ترجمة نتاجه بالعربيـة الى الانكليزية . وفي صيف ١٩١٣ تذهب الى كاليفورنيا ، وتستغل عطلتها للبدء بالدرس ، ونجد في رسائلها في تلك الفترة اسئلة كثيرة منها واجوبة منه عن طريقة اللفظ وما شاكل. وتؤكد له في رسالة (١٩١٢) : « لن اموت، يا خليل ، قبل ان اكون قد قرأتك ! اصغِ لما اقول ! لن اتركك في هذا العالم قبل ان اقرأك !» لكن التلميذ ، مهما كان مصرا على التوصل الى اعماق معلمه، يحتاج لنجاح ذلك الى شيء من التشجيع من معلمه ذاته . وهذا التشجيع ، في هذا المضمار بالذات ، لم تحظَ به ماري من جبران. تقول في يومياتها للعام ١٩١٤ : « على العشاء طلبت مشورته بخصوص محاولتي تعلم العربية وسألته ان كانت تستحق مثل هذا العناء . قال انها

لا تستحق مثل هذا العناء ـ لان بوسعي ان اقوم باعمال اخرى اكثر ابداعا : وانما هي الاعمال المبدعة وحدها التي تستحق مثل هذا العناء ». بعد ذلك لا نعود نقرأ عن محاولات جادة من طرفها، لدراسة لغة معلمها. لكن، ايضا ، بعد ذلك يكون جبران قد بدأ ينصرف الى الكتابة بلغتها هي .

ابعد من الف عام لا استطيع ان ارى

في الكتب المختلفة عن جبران مقاطع نجدها هنا وهناك نستغربها لاول وهلة ، عن ادعاءاته اموراً لم تكن صحيحة وسرده احداثا تتعلق بماضيه هي مجرد اختلاق . لكن هذه النتف قليل من كثير مما نجده في الاوراق التي ندرسها هنا من اختلاقات وادعاءات وبهورات ، لم يكن لها اي لزوم او مبرر ، فما كانت لتزيد في اهميته الحقة ، وما كانت لتزيد في كسب محبة ماري له ، رغم انها كانت تبتلعها بيسر وتصدقها كل التصديق .

فهو لا بد ان يكون من اسرة نبيلة يعود تاريخها المعروف الى قرون عديدة للوراء . وهو يروي لماري (١٩١١) ان اجداده جاءوا دمشق في القرن التاسع ، وكانوا حكاما اشداء ، شنق ثلاثة منهم ، وتوجه بعضهم الى جبل لبنان في القرن الثاني عشر ، وحكموه ببأس ، وقتلوا بالسيف . وفي الحروب الصليبية شاهد مطران صليبي احد الملوك من آل جبران يمتطي جواده ويتسربل بثوب ابيض . فسأل عن اسمه ولما قيل جبران قال المطران انه قد يكون الملاك جبرائيل ، لوسامته وبهائه . ويروي لها في مناسبة اخرى (١٩١٥) ان اميرين من آل جبران صلبا في انطاكية في اوائل القرن الرابع عشر ، وان احد افراد الاسرة يمم في القرن الثالث او الرابع عشر فرنسا وايطاليا وسعى الى ان يبدأ حملة صليبية جديدة – لكنه فشل في سعيه ، وعاش هناك زمنا طويلا .

وعندما يحدث ماري عن اسرته في تاريخها الحديث يتابع النمط ذاته ، فجده لابيه (١٩١٠) ثري ارستقراطي كبير يحتفظ في داره باسود كما يحتفظ الانسان عادة بكلاب ، وجده لامه مطران معروف بسعة اطلاعه وحبه البحث والدراسة ، ويتكلم الاغريقية واللاتينية والفرنسية والايطالية بالاضافة الى العربية ، بل انه (١٩١٤) كان هو وراهب ايطالي « يتكلمان باللاتينية معا على الدوام ، بذات اليسر الذي اتكلم واياك الانكليزية الآن به ». وجدته لامه كانت ابنة اغنى رجل في لبنان (١٩٢٣) . ويصف بيته في بشري واتساعه واثاثه الفاخر (١٩١٠) . وفي ١٩١١ يذهبان معا الى احد المتاحف ، ويدنو من المنصة الضخمة المعروض عليها القرآن الاثري ويقول انه يشعر كأنه في بيته ، ويروي لها ان في بيته في بشري سبع نسخ مثل هذه وان مجموعة القطع الجميلة فيه هائلة ومنثورة في سائر انحاء البيت .

ويحدث ماري (١٩١١) عن امه ، وعن انها كانت رفيعة الثقافة ، تتكلم الفرنسية

والايطالية والاسبانية والانكليزية عدا العربية . وفي ١٩١٨ يعـود الى الحديث عنها ، ويروي لهـــا ان امه قبل وفاتها بيوم واحد كانت تحادثه عن صوفية تومـا الاقويني والقديسة تيريزا . هذا ونحن نعرف من دراسة الدكتور حاوي ان ام جبران كانت ذكيـة مستنيرة لكنها لم تكن متعلمة ابدا ، وقد بنى رأيه هذا على مقابلة لابن اخيها . ويقول (١٩١٥) انه لما كان في اوائل عهد طفولته كان في بيته مربون يعلمونه اللغات المختلفة ، من انكليزية وفرنسية والمانية ، لكنـه يقر انه لم يستطـع ان يتعلم كلمة واحـدة من الالمانية .

وسألته ماري ذات يوم في ١٩١٦ متى بدأ يكتب الشعر . قال في سن العاشرة اوالثانية عشرة ، وانه كتب اذ ذاك قصائد رومنطيقية طويلة ، وان واحدة منها فحسب قدنشرت لكن قصائده هذه يغنيها المئات في سوريا ومصر . وقال لها (١٩١٥) انه ما بلغ الثالثة عشرة او الرابعة عشرة حتى كانت قد نشرت مقالات في الصحف وكتيبات عن نتاجه وعن رسومه . وانه اثر ظهور « الارواح المتمردة » تلقى تهنئة من خديوي مصر (١٩١١) .ولم يكن نبوغه ابكر في الادب منه في الفن : بل على العكس من ذلك ، عرض جبران على ماري في ١٩١٧ لوحة قال انه صورها يوم كان في الخامسة من عمره ، وقال لها بخصوصها : « اني ابو التكعيبية ! » — وتردف ماري ، بايمانها المعهود ، ان هذه الصورة دراسة لا بد لاي امرىء اليوم ان يسميها تكعيبية .

غير ان مبالغات جبران هذه، اذا لم نشأ ان نستعمل لوصفها كلمة اقوى ، لم تقتصر على بواكير حياته وعلى تاريخ اسرته منذ قرون، بل تعدتها الى حيواته السابقة لحياته الحالية. فهو يؤكد لماري (١٩١٦) ان عنده شعورا واعيا بكونه عاش حياة بشرية في الماضي ، ويقول لها في ١٩١١ انه في حيواته الماضية عاش مرتين في سوريا ، لكنما لفترات قصيرة، ومرة في ايطاليا الى سن الخامسة والعشرين ، وفي اليونان حتى الثانية والعشرين ، وفي مصر حتى الشيخوخة ، وعدة مرات ، ست مرات او سبعا ربما ، في بلاد الكلدان ، وواحدة في كل من الهند وفارس . ويردف انه في هذه الحيوات كلهـا كان كائنا بشريا ، لكنه لا يعرف شيئا عن حيواته قبل ذلك . وتسأله ماري في آخر ١٩٢٠ كم قرنا في المستقبل يعي الآن وكم قرنا في الماضي ، فيردّ ، بدون رمشة عين كما يبدو ، انه يستطيـع ان يرى ما بعد ٥٠٠ عام في المستقبل بوضوح اجلى مما يرى ما بعد ٢٠٠ عام به ، والف عام اوضح من ٤٠٠ عام — « اما ابعد من الف عام فلا اشعر اني استطيع ان ارى . ابعد من ذلك لن تكون القضية الا قضية تحزير » . اما الماضي فبوسعه ان يعيش فترة النهضة فيـه بيسر شديد . لكن الفترة الايسر عليه هي قبل الفي سنة .

ونجد المبالغات ذاتها في رسائله واحاديثه لماري فيما يتعلق بدوره الوطني ، خاصة ابان

الحرب العالمية وبعدها . فهو يروي لها (١٩٢٢) ان الحكومة التركيـة نفته من وطنه ، ويكتب لها في ١٩١٤ عن « رسالته الى الاسلام » ويقول لها انه بكتابته لها قد وقع بيده على وثيقة موته ـ « لكني لا اعبأ » . وعندما تشتعل نيران الحرب فعلا ينبئها عن عزمه على الذهاب الى سوريا ، لانه يأمل ان يكون عاملا فعالا في حمل السوريين على الثورة ضد الاتراك . ويطلع ماري على خطتـه المفصلة فيما يختص بالاقاليم العربية المختلفة ، لكنهـا تلاحظ : « اعتقد انه لم تكن لديه خطة معينة لوادي الفرات » . وتسأله ان كان عنده عدد من الرجال الذين يمكنه ان يلجأ اليهم عندما يستهل العمل ، فيجيب بتواضع ان عنده نفرا قليلا لكن عددا اكبر سيتوفر فيما بعـد . وفي ١٩١٦ يحدثهـا عن ان الذين وقعوا العريضة في مؤتمر باريس الذي كان من المفروض ان يحضره قد سقطوا في ايدي الاتراك ، ففتك هؤلاء بالموقعين ـ ويقول لها انه كان يعرف حوالي خمسين من هؤلاء الشهداء معرفـة شخصية . ويقول لها ، عن فكرة الحكم المحلي لسوريا ، انه انمـا كان هو منشىء هـذه الفكرة والموجه لها .

وتروي ماري في مذكراتها لآخر ١٩١٧ ان جبران ، الذي كان قد جاء لصرف عيد الميلاد في بوسطن ، اراها ندبة في ذراعه قال لها انها آثار جرح نجم عن رصاصة اطلقت عليه حينما كان في باريس يخطب عن الاتراك ، وان محاولة اغتياله هذه دبرها الاتراك للتخلص منه ، وان النار اطلقت عليه من مسافة قريبة جدا . وتلاحظ ماري ان جبران لم يكن قد ذكر لها قط شيئا عن هذه المحاولة فيما مضى (وقد مرت عليها ، ان صحّت ، حوالي ثماني سنوات ، وهو الذي كان يخبرها عن كثير من الحوادث الاعتيادية البسيطة التي تحدث له) . لكنها ، بالطبع ، لا تشكك في ما يقول ، بل تعلق : « غير ان التهديدات والمؤامرات لا تؤثر عليه في شيء » .

وبانتهاء الحرب لا ينتهي دوره في الجهاد . فهو يروي لماري في ١٩٢٢ ان بلاده لا تني تدعوه اليها لانها في حاجـة له ، ويقرر : « ان الشرق في واقـع الحال ليس من شغلي . فالحركات مهما كانت نوعيتها ، سياسية او ادبية او حتى فنية ، لا تعنيني » . لكن الظاهر ان بلاده لم تفقد الامل ، اذ اننا نجده بعد سنوات ، في خريف ١٩٢٨ ، يكتب لماري : « ان الصيف لم يكن صيفا سعيدا بالنسبة لي . فقد عانيت الآلام معظم الوقت . لكن ما همّ ؟ لقد كتبت قطعا كثيرة بالعربية ، اناشيد وقصائد نثرية . بل فعلت اكثر من ذلك ، وانا اعاني الالم . فقد اخبرت اهالي جبل لبنان انه ليست لي رغبة في ان اعود اليهم واتولى الحكم فيهم . ذلك انهم يريدونني ان افعل ذلك . وانت تعرفين ، يا ماري ، اني مشتاق لوطني وان فؤادي يحن الى تلك التلال والوديان . لكن من الافضل ان البث هنا واشتغل » .

من هذه المبالغات ، ايضا ، التي ادرك جبران ولا شك انها ستفعل فعلها في نفس ماري ،

احاديثه لها عن المسيح . ليس فقط احاديثه عن آرائه اللاهوتية الخاصة فيه ، التي تبلورت في كتابه « يسوع ابن الانسان » ، بل وبالاهم احاديثه عن علاقته الشخصية به . فنجده مرارا وتكرارا ، في الرسائل واليوميات على السواء ، يحدثها باسهاب عن احلامه ورؤاه التي يظهر له فيها المسيح . نرى هذا منذ العام الاول في تاريخ هذه الاوراق ، ١٩٠٨ ، ونظل نراه مدة خمسة عشر عاما .وتقول ماري (١٩١١) انجبران اخبرها ان من عادته ان يرى المسيح « لا اقل من مرتين في العام الواحد ـ لكنه لا يراه مطلقا اكثر من اربع مرات في العام الواحد » .

رآه لاول مرة (يقول ، ١٩١١) عندما كان عمره اربع عشرة سنة ونصف السنة ، وهو على ظهر الباخرة العائدة به الى سوريا . في منامه ذاك رآه قرب بشري ، ولم يكلم احدهما الآخر ، لكن المسيح جلس الى قربه على الحجر . ويصفه جبران لماري ، ويقول انه دوما يظهر له على ذات الشاكلة ، وانه « لا يشبه ابدا اية من الصور المعروفة له ... ففي الصور يبدو على الدوام وكأنه قد خرج لتوه من الحمام ، بشعره المسوّى جيدا . اما انا فاراه في يوم قائظ ـ دوما اراه في منتصف النهار ـ وعلى قدميه غبار ، وفي يده عصا ، وشعره منكوش ، يرتدي ثوبا رمادي اللون ، ذا حاشية بلون الغبار ، وقد تهرأ وحف في اسفله » . ويقول انه قوي البنية ، حسن الصحة ، ذراعاه وساقاه شديدة ، اما عيناه «فاني مستعد ان اعطي اي شيء لو انني استطيع ان اخبرك عن عينيه وجلده : فانا لم اشهد مثل لونهما على بشري ابدا. ان عينيه ليستا بالحزينتين ولا بالمرحتين ، لكنهما مليئتان بالحياة والتفهم والحيوية والعمق والراحة والبعد والبساطة ... انه ليس كبير الحجم وليس طويل القامة ، بل مجرد انسان معتدل القوام ».

مرة بعد مرة يصف جبران المسيح في احاديثه لماري ، كما رآه في رؤاه ، وصفا دقيقا مسهبا ، وفي غالب الحالات لا يكون الوصف اكثر من تكرار واعادة لهذا الذي سبق . غير ان ماري لا تسأم السماع ، وكأنما جبران يدرك انها تحب ان تسمع ما اصبحت تعرفه كما يعرفه هو ـ كالطفل الذي يصر ان يسمع من جديد قصة بات يعرف كل تفاصيلها .

لا يتراءى المسيح له في احلامه الا في وطنه . وغالبا ما لا يستطيع ان يتذكر ما دار بينهما من حديث ـ « لا اتذكر كلماته ، ولكني احس بها الآن كما يحس المرء في الصباح بوقع الموسيقى التي استمع اليها في العشية السابقة» ، كتب في رسالة لماري في ١٩٠٨ . واذا كان لم يدر بين المسيح وجبران حديث مهم ما ، الا ان علاقاتهما كانت ودية اليفة . ففي احد الاحلام (١٩١٩) يملأ المسيح يدي جبران بالكرز ، وفي حلم آخر (١٩٢٣) يرد جبران الجميل له: فيقدم له الرشاد ويأكله المسيح بتلذذ .

هذه الاحلام والرؤى كانت تعني له الكثير ، وكان ينقل تفاصيلها الى ماري في الحال .

ويتذمر مرة في احدى رسائله اليها (١٩١٢) : « آه يا ماري، يا ماري ، لماذا لا يمكنني ان اراه في احلامي كل ليلة ؟ » ويأتيه جواب ماري : « كم انت عزيز ، يا طفلي ، لانك اخبرتني عن حلمك عن يسوع، وعن شعورك في اليوم التالي. ان ذلك كينبوع ماء عذب عميق يتفجر . كم انت مطوب لانه قد بدأ يأتيك كعادته في هذه الفترة الجديدة من حياتك » .

بعد هذا يتقدم خطوة اخرى، ويخبرها (١٩١٩) انه رآه الآن كما كان يراه في احلامه، لكنما اوضح بكثير — ويضيف عبارة حبلى بالمغزى : « ولم اكن احلم » . ثم يقول لها ، تمشيا مع الخط ذاته ، في اليوم الاخير من عام ١٩٢٢ ، انه والمسيح مولودان في اليوم نفسه — تقول ماري في يومياتها : « وعندئذ اخبرني بان يسوع في الواقع ولد في ٦ كانون الثاني (يناير) » . وتضيف : « وهذا هو تاريخ ميلاد خليل ذاته » .

لكن علينا ان نقول ، في هذا المجال ، ان التنبؤات التي كان يدلي بها عن مدى حياته وحياتها كانت صائبة لحد كبير . فهو يقول لها في ١٩١١ بانه يعتقد انه سيعيش خمس عشرة سنة او عشرين سنة اخرى ، وانها ستعيش الى السبعينات من عمرها ؛ وفي ١٩١٦ يقول انه سيعيش خمس عشرة سنة او سبع عشرة سنة اخرى ، وانها ستعيش الى الثمانينات من عمرها . وقد صدق حدسه ، فقد مات في ١٩٣١ — بعد ٢٠ سنة من التاريخ الاول و١٥ سنة من التاريخ الثاني ، وعندما ماتت ماري كانت قد تجاوزت الثمانين .

سيان ، ان اكتب رسالة لك أو قصيدة

لم يكتب جبران في حياته عددا من الرسائل ، لرجل او امرأة ، بالقدر الذي كتب به الى ماري هاسكل ، ولم يتلقّ اجوبة عليها بالقدر الذي تلقاه منها، ولم تتسم الرسائل المتبادلة بينه وبين اي سواها بما اتسمت به الرسائل التي تبادلها مع ماري من طول ومن عاطفة ومن اعتراف ومن صدق .

يقول الدكتور جبر ان جبران كان ينقح ولا يمل ، « وقد عثرنا على رسالة وجهها الى مي وضع لها خمس مسودات » . ويشير الدكتور حاوي الى انه في رسائله يعتمد الاسلوب الادبي كما في مؤلفاته ، لا الشخصي ، وانه ينقح وينقح الى ان تضيع منها جميع المعالم الشخصية الخاصة . لكن هذا الذي يقوله الدكتور جبر والدكتور حاوي عن الرسائل الاخرى لا ينطبق على الرسائل التي بين يدينا . فهي في اكثريتها الساحقة رسائل تلقائية عفوية ، لا تنقيح فيها ولا تعديل ولا تصحيح ، ينطلق فيها الكاتب من فكرة لفكرة قبل ان يستكملها ، ثم يعود اليها عندما تخطر ثانية بباله بعد فقرات ، وفيها اخطاء كثيرة كان ممكنا تداركها لو ان كاتبها اعاد النظر فيها مرة واحدة ، سواء في التهجئة او في تكرار الالفاظ او في عدم اكتمال العبارات . وهي رسائل كاشفة مخلصة ، لا حجب فيها ولا

اقنعة ولا افتعال .

وقد كان كل من المتكاتبين واعيا لقيمة هذه الرسائل وفرادتها، شاعرا باهميتها في حياتهما وفي علاقتهما . فهو يكتب لها (١٩١١) عن مفعول رسائلها : « آه ، تلك الرسائل ، تلك الرسائل الغنية التي تصلني منك . كل منها وليمة لنفسي الجائعة هذه . انها اكثر من رسائل. انها تواريخ موجزة لقلبك الشبيه بالاقيانوس » . ويتحدث (١٩٢٢) عن رسائله لها : « ان الرسائل التي اكتبها لك ليست رسائل. فليست لديّ اشياء معينة اكتبها لك — عن هذا الامر او ذاك. انما انا اعبر فيها عن نفسي. والامر سيان تماما بالنسبة لي: ان اكتب رسالة لك ، او اكتب قصيدة بالعربية » .

تشكو ماري في يومياتها (١٩١٢) من ان جبران لا يحشو رسائله لها بعبارات الحب التي اعتاد تبادلها المحبون : « لقد كنت واعية لفرق بيننا وبين ما اعتاد عليه المحبون — هو في قلة الرسائل ما بين خليل وبيني — وفي قصر رسائله هو على الاقل ، وقلة تعابير الحب فيها . لقد كنت اعرف على الدوام ان ندرة كلمات الحب في حاله منشأها وفرة الحب فيه، لا ندرته — لكني لم اعرف قط لماذا الامر هكذا. اما الآن فاني اعرف ان هذا لان حياته هو كلها نوع من الحب ، كلها حب ». وبعد سنين طويلة ، في ١٩٢٣ ، كانا يتحدثان عن رسائل الحب ، وافضى اليها بانه لم يكتب في حياته كلها رسالة حب واحدة .

لكن ماري لم يكن لها في الواقع ان تشكو ، ولم يكن لجبران ان ينفي بسرعة انه كتب في حياته رسائل حب . ما علينا الا ان ننظر، ولو نظرة عجلى ، الى رسائله والى رسائلها، مرورا من عام لعام ، لنرى (بالاضافة الى الجو العام ، وهو الاهم ، جو الحب) عبارات غرامية لم يكن جبران ولم تكن ماري ليكتبا اشد منها ، وطبيعتها الشخصية هي ما هي .

جبران لماري : « اقبل يدك يحفني ، يا ام قلبي العزيزة » . « اننا جميعا ، وكل واحد منا ، يا عزيزتي ماري ، لا بد ان يكون له مكان راحة في موضع ما . قد يكون ذلك المكان كتابا او فكرة او ذكرى نصف منسية . امانفسي فمكان راحتها هو تلك الحديقة الجميلة الغريبة التي تسكن فيها معرفتي لك . شكرا لله ولك على وجود تلك الحديقة » . في عيد الميلاد : « افكر فيك ، يا صديقتي الحبيبة ، كما لا افكر باي انسان حي . وعندما افكر فيك تصبح الحياة افضل واسمى واكثر جمالا بكثير . اقبل يدك، يا عزيزتي ماري، واذ اقبل يدك فاني اجلب على ذاتي البركة » . « اجل ، ايتها الحبيبة ماري ، لقد مضى اكثر من عام منذ رأيتك آخر مرة. ويعلم الله اني جائع لقربك. انه جوع مؤلم احيانا، وهو احيانا جوع عميق حلو » . « دعيني اقبل يديك — اليدين المليئتين بنور الله » . « ماري، ايتها الحبيبة ماري ، عندما تكونين لوحدك، في صمت الليل، ارسلي لي نسمة من انفاسك،

نسمة صغيرة من انفاس قلبك ، وسأعكف على عملي بشكل افضل » . « آه يا ماري ... لا ادري لماذا احس اليوم بهذه الوحشة التي احس بها ... اريد ان اكون في العالم العربي، او ان اكون معك » . « والآن دعيني اصرخ بكل مـا في حنجرتي من صوت : اني احبك » . « اتحدث اليك ، يا ماري ، كما اتحدث الى قلبي انا . انت وقدري شيء واحد، لا ينفصل ايهما عن الآخر . وكيف يخبىء المرء شيئا ما عن قدره ؟ » « ان ساعة معك في هذا الستوديو الصغير لافضل من اسبوع في جبل لبنان ».

ماري لجبران : « اتمنى لو استطيع ذات عشية ان اضعك في الفراش لتنام ، ومن ثم ان انظر الى يديك وقتا طويلا وبصمت كما اشاء . اني ككلب جائع يريد لقمة واحدة ». في يوم مولده ، ١٩١٢ : « شكرا للاله الطيب الذي وهبك لامك قبل ٢٩ عاما، والذي قبل عام قربنا واحدنا من الآخر ... يا اعز تجليات الله ... يا معلمي » . « ان هاتـين اليدين الحلوتين الهشتين تحبان ، يا خروفي ، ان تسقياك الحليب ، وان تغسلا حوافرك ، وان تعقدا شريطا جديدا ازرق حول عنقك » . « لماذا ليست ذراعاك ست ساعات طولا لتصل بهما الى بوسطن ؟ » « ومتى ستأتيني في حلم فتحيل الليل احلى مما هو الليل ؟ » «انت جوهري كما انا جوهر ذاتي. لقد مُزجنا معا في خابية، ولا استطيع ان افصل جوهري واعزله». «آه يا رمانتي ويا زهرة الرمان». «انت حريتي وربي الذي يفهم كل شيء ـ وانا احبك وسعيدة معك». « ان استطعت، ايها العزيز ، ان تستحم في بحر جوعي اليك، فان بحري سينتعش » . « أيضجرك ان اظل اقول باستمرار اني اجد فيك راحتي وانتعاشي كأنك الشمس والظـل والمـاء ـ وان التفكير فيك لكالهـواء النقي والضياء والحرية ؟ » « يا بروميثيوس ، ايها المسيح » . وآخر كلماتها المكتوبة له اطلاقا ، في ختام رسالتها الاخيرة قبيل وفاته : « حبي ، حبي ، بركتي ».

النساء من نوعك يستثرن الرجال

الصورة التي ارتسمت في اذهان اجيال القراء لماري هاسكل هي لحدّ كبير الصورة التي رسمها لها الاستاذ نعيمة في كتابه. فهي المرأة الامريكية التي تكبر جبران بعشر سنين، البعيدة عن كل امائر الجمال والاغراء والجاذبية والاناقة. ويقتبسه الدكتور حاوي ، ويقره على وصفه ، بناء على صورة فوتوغرافية لماري وصورة فنية لها بريشة جبران موجودتين في المتحف في بشري . غير ان فليكس فارس يستهجن وصف الاستاذ نعيمة لها : « اذا نحن اخذنا بوصف المؤلف لماري نتمثلها امرأة مشوهة الخلق، لا حواجب ولا اهـداب لها ، مستطيلة الانف ، يبدأ فمها من متوسط خدها الايمن لينتهي عند متوسط الخد الايسر ، وهو منفرج عن لثتين تركبت فيهما اسنان متراكبة فلجاء ، صدرها ضيق وكتفاها عاليتان تمتد منهما ذراعان طويلتان تنتهيان بكفين طولهما ضعف عرضهما، ركبت فيهما انامل عظمها

اوفر من لحمها . فهل يجد القارىء مناصا بعد هذا الوصف من ان يقول : اعوذ بالله رب الفلق ؟ » وهل يجد فليكس فارس ذاته مناصا ، ان هو اعتمد على وصف الاستاذ نعيمة هذا ، من ان يقول في وصف ماري انها « عانس شمطاء » وانها « مسنة قبيحة » وانها « محرومة من الجمال ومن فتنة الجنس » ؟

ليس لنا بالطبع ان نقول ان وصف الاستاذ نعيمة لماري كان كاذبا او كان صادقا — خاصة وان الاوراق التي امامنا لا تحوي صورة لها ، فوتوغرافية او فنية . لكن أليس لنا حق ان نتساءل كيف يبيح الاستاذ نعيمة لذاته ان يصف ماري هذا الوصف غير المقتضب ، كما كانت في ١٩٠٤ ، وهو ذاته لم يرها الا في ١٩٣١ — وكانت قادمة من سفرة طويلة مضنية لتودع الوداع الاخير رجلا عرفته واحبته مدة ربع قرن ويزيد ، كما كانت قد اوشكت على بلوغ عامها الستين ؟ ان عددا من الشعراء ، باللغات المختلفة وفي العصور المختلفة ، عندما كانوا يحاولون بقصائدهم استمالة الحبيبات اليهم واقناعهن بالتخلي عن الترددوالتبغدد ، كانوا يلجأون الى تذكيرهن تذكيرا منطقيا عمليا بما سيصرن اليه في المستقبل : انظرن الى النساء المتقدمات في السن ، وامتثلن ! مثل هؤلاء ستصرن بعد سنين ، وهؤلاء فيما مضى كن يدرن رؤوس العشاق ويلهمن الشعراء اروع مما تلهمهم الشياطين . او لم يكن ممكنا ان تكون ابنة الثماني والخمسين سنة ، حتى وان انطبق عليها وصف الاستاذ نعيمة آنئذ ، مختلفة شكلا عما كانت عليه وهي ابنة احدى وثلاثين ، يوم عرفها جبران ؟

ان فليكس فارس يسأل الاستاذ نعيمة سؤالا وجيها في محله : « هل كان متأكدا من ان هذه الفتاة كانت في عين جبران تلك الفتاة العانس الشمطاء العوجاء الشوهاء ؟ » في هذه الاوراق ما يوحي بان ماري لم تكن ابدا هذا المسخ ، وانها بالاحرى وفي الواقع كانت تروق جدا لجبران ، جماليا وجسديا وحسيا .

اننا نراه ذات يوم في خريف ١٩١٤ يحادثها عن الاجساد الجميلة ، ويقول لها ان جسدها هي متناسب التقاطيع بشكل جميل ، وان النسب فيها بديعة جدا ، ويقول لها ان بنيانها خارق لانها خارقة جدا من ناحية جسدية . ونراه في ١٩٢٣ يأخذ عليها امنيتها بان يكون ردفاها اصغر حجما مما هما فعلا ، ويقول لها ان ردفاها لهما بالحجم الصحيح تماما ، وان عليها ان تكون شكورة عليهما ، وانها متناسبة التركيب في جسدها كله بدون استثناء . وينصحها بالا تلبس مشدا حولها ، مهما كان الزي الشائع . وفي العام التالي نراه يقول لها انها ليست بدينة ، لكنها هي ممتلئة وليست بالنحيلة — ويضيف انه يحب ان يراها ممتلئة — (في ١٩١١ كان يحادثها في رسالة منه لها عن صديقتها شارلوت ، واراد ان يمتدحها لها ، فذكر لها انها « مدهشة ، يا عزيزتي ماري : فهي كبيرة الحجم وعريضة ») . ويؤكد لها رأيه في الخمسين ان المرأة في سن الخمسين قد تكون اجمل ، من ناحية جسدية ، من الفتاة

الشابة . ويقول لها في ١٩١٣ انه يعتقد انها حسية وجسدية وان حاسة اللمس مرهفة جدا فيها . (وسنقرأ اكثر عن هذا في المقاطع عن علاقة الحب بينهما) .

لقد اعطيتني قلبا جديدا هذه الليلة

القصة التي يرويها الاستاذ نعيمة عن تفكير جبران بالزواج من ماري ، وعن الباعث الذي جعله يتقدم لطلب يدها ، وعن ردها له بسؤالها القصير : « لكن انظيف انت؟» ، وانتهاء القصة هناك ، معروفة ومرددة في اكثر من مكان . وقد اوجز الدكتور حاوي في مؤلفه النقدي القصص المختلفة التي ذكرها المتحدثون المتعددون عن جبران — قال : « بعد عودة جبران (من باريس) مباشرة ، اقترح على الآنسة ماري هاسكل ان تمشي معه الى حيث تدعوهما الحياة ؛ ويعتقد الاستاذ نعيمة ان الدافع على هذا كان رغبته في الضمان المالي لا الحب الصحيح . اما السيدة يونغ فتزعم عكس هذا ، وتقول ان جبران لم يعرض الزواج على الآنسة هاسكل الا عندما كان قد اضحى رجلا ثريا ، وقصده ان يترك لها جميع ممتلكاته عربون شكر لافضالها السابقة عليه . ويرى الاستاذ عبد المسيح حداد رأيا ثالثا ، مفاده ان العلاقة ما بين الآنسة هاسكل وجبران كانت مجرد العلاقة بين محسنة وفنان موهوب، وهو بالتالي ينكر ان عرض الزواج قد حصل اطلاقا. وبما ان هؤلاء الثلاثة جميعا يتحدثون بثقة من استمد معلوماته من اعترافات مباشرة اما من الآنسة هاسكل او من جبران ، وبما ان تحليل النصوص المختلفة لا يساعدنا ، كما نرى ، على البت في حقيقة الامر ، فخير لنا ان نترك القصة هنا ».

لحسن الحظ ، تجيء هذه الاوراق الآن لتلقي الضوء على الجوانب المختلفة لهذه الحادثة ذات الاهمية الكبرى في حياة جبران وماري وعلاقتهما معا .

يرد فيها ذكر موضوع الزواج منذ صفحاتها الاولى ، بعيد عودة جبران من باريس في خريف ١٩١٠ . فبعد سبعة اسابيع من عودته ، في ١٠ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٠ ، يذهب جبران وماري الى احد المتاحف ، ثم يقضي العشية عندها — تقول : « قال لي انه يحبني وانه سيتزوجني اذا امكنه . لكني قلت له ان عمري يجعل ذلك غير موضوع بحث... وقلت اني اود جدا ان احتفظ بالصداقة الدائمة بيننا ، واني اخشى ان نضحّي بصداقة جيدة من اجل علاقة حب سقيمة . حدث هذا بعد ان اوضح خليل ما الذي كان يقصده » . وهنا تأتي عبارة محيرة عندما نقرأها اول مرة : تقول ماري: « في عصر اليوم التالي صرف خليل بعض الوقت هنا، وقلت له نعم » . ثم تأتي النبذة اللاحقة لها رأسا، فاذا الموضوع قد تبدل تماما .

غير ان القصة لا تنتهي على هذه الشاكلة . فالظاهر ان جبران لم يتوقف عن السعي لاقناعها . فنراها تلجأ الى طريقة مبتكرة : تجمع كل ما تيسر لها جمعه من صور قديمة

لها ، « وبعضها مرعب مخيف » ، وتعرضها على جبران « كيما ابعث فيه نفورا مني » . لكن الخطة لا تنجح ، فجبران يلتذ برؤية هـذه الصور ، ولا تفعـل فيه المفعول الذي ارادته هي .

في الشهر التالي يسألها ان كانت تؤمن بالله ، وحينما تجيب بنعم ، يقول لها : اذاً فلنضع ايماننا فيه ، ولنثق ثقة مطمئنة بان كل شيء سيكون حسنا كما يجب ان يكون . اذا قلت لي : انا اعتقد ياخليل انه ليس من الحكمة ان نتزوج — فاني ساقبل ما تقولين قبولا مطلقا ، واصدقه » .

ثم يعقدان حديثا آخر في الشهر التالي ، في شباط (فبراير) ١٩١١ ، ويعترضنا فيه مقطع مهم ، مفاده ان الحديث واجوبة جبران على تساؤلاتها «اوضحت تدريجيا وببساطة وهدوء الاحساس بالامتلاء في حياتي الحاضرة وضحالة الحياة معه ، والاحساس بالضعف الجسماني ووقوفه عائقا في الحياة الزوجية . قد يتقوى في المستقبل — غير ان نشأته كانت وكأنه زهرة صغيرة غضة ... ان هاتين الساعتين قد كشفتا النقاب لي عن امور كثيرة !»

منذ الشهر الاخير في ١٩١٠ كان اقتراح جبران يشغل فكر ماري . ويبدو انها رغم اعتذارها للوهلة الاولى ، لم يأتِ جوابها الرافض الا تدريجيا ونتيجة تفكير طويل ومداولة ذاتية مضنية . في ١٤ نيسان (ابريل) ١٩١١ تصل الى القرار : « وهكذا فاني وصلت الى قرار ، بان اتبع ما ظهر لي بانه اصبع الله الاخيرة . فقد اقصيت عني اكيدا امكان ان اصبح زوجته . ومع ان كل ساعة من ساعات يقظتي منذ ذلك الحين كانت مغموسة بالدموع ، الا اني اعرف اني مصيبة في قراري ، وان الدموع تعني الفرح والالم للمستقبل . ان عمري هو ببساطة الحاجز القائم ما بيننا وبين هفوة زواجنا . انه ليس عمري الذي يشكل العائق — بل العائق هذا : ان بانتظار خليل حبـا يختلف جدا عن الحب الذي يحس به تجاهي — رؤيا حب — وهذا سيكون زواجه . ان اعماله الكبرى ستكون ثمرة ذلك الحب ، وسعادته العظمى ، وحياته الجديدة الممتلئة . ولن تنقضي سنوات طويـلة قبل ان يحصل هذا . انا لست الا خطوة ، في الطريق الى المرأة التي سيحبها ذلك الحب . ومع ان عينيّ الحساستين تبكيان ، الا اني افكر فيها بفرح — ولا اريد ان اتزوج خليل ، لاني اعرف انها تنمو الآن له في مكان ما ، وانه ينمو الآن لها » .

وجاء جبران يزورهـا في اليوم التالي ، وقالت له ان لديها مـا ستقوله له في المساء : « ان كل ما فيّ يعترض على قولي له ، ما عدا الشيء الوحيد الذي يجعلني اقوله . غير اني اعرف ان هذا الشيء الوحيد هو المصيب » . ويسألها جبران ما القصة ، اهو امر سيء؟ فتجيبه : « سيء بالنسبة لي ، جيد بالنسبة لك » . « واخذ يدي بيده وشد عليها ، وقلت له قد توقفت عن التفكير باني سأكون في يوم من الايام زوجتك — وانا اريد ان اكون.

انقلب ابيض اللون ، وسكن تماما ... »

وتروح تروي له « كل شيء » : كيف انها كل مرة كانت تفكر فيه ، منذ اوائل كانون الاول (ديسمبر) ، بانه لها ، او تفكر في نفسها بانها ستتزوجه في يوم من الايام ، كانت تشعر شعورا قويا بانها مخطئة ـ كيف ان عمرها يقف حاجزا لا يمكن تخطيه ، وكيف انها « بالرغم مما فيّ من شباب ومن قوة سأبدأ قريبا في طريق النزول ، في حين انه سيبقى لوقت طويل في صعود وتسلق » ـ كيف انه « ما زال لم ينضج بعد ، وما زال نتاجه الافضل وحبه الافضل امامه ، وانهما سيأتيان معا ، غير اني لن استطيع ان اكون تلك المرأة ـ كيف انه اذا كان مرتبطا بي عندما يجيء هذا الحب الجديد فان كل ما هو نبيل وفروسي فيه سيصرخ ناقما عليّ » ، الى آخره. « وبكى . فاحضرت له منديلا. لكنه لم يقوَ على الكلام . في البداية ، عندما توقفت مرة عن الكلام ، قال بصوت كسير : تعرفين يا ماري اني لا استطيع ان اتفوه بشيء عندما اكون في هذه الحال . وسكت ولم ينبس بكلمة واحدة . وكان التعليق الوحيد الذي علق به هو انه يحبني . وعندما انتهى كل شيء فتحت ذراعي له ـ لكنه سرعان ما ضمني بذراعيه ، والقلب الذي لم يكن ليتعزى اذ ذاك ليس قلبا من لحم ودم ..... » (هذه النقط التسع في الاصل) . « وحينما اصبح الوقت قد تأخر ، وضعت راحة يده اليمنى على شفتي ـ وعندئذ انهمرت الدموع حقا ، غير انها في الواقع قربتني اكثر اليه . وقبلت تلك اليد البديعة كما كنت اتشوق منذ وقت طويل ان اقبلها ، لكني لم اكن قد فعلت قبل الآن ، لان مجرد لمسها كان يثيره لحد كبير . واستجابت لي كقلب ... وحينما اوصلته للباب بكيت قليلا مرة اخرى ، بينما مسح عينيّ ، وهو لا يقول الا : ماري ، ماري ، ماري . وعندما خرج قال كأحسن ما يستطيع ان يقول : لقد اعطيتني قلبا جديدا هذه الليلة » .

وتستطرد ماري : « وبعد ان اويت الى الفراش ودموعي تنسكب شعرت فجأة كأن سلاما وضياء عظيمين قد حلا ، واني واياه فيهما ، فصحت : شكرا ، يا الهي ، شكرا ؛ وكررت ذلك مرة بعد مرة . وشعرت بسعادة عظمى تفوق الوصف . انا ادرك اني قد تنازلت عنه ـ لكن ذلك لم يفرق بيننا ـ بل بالاحرى لقد قرب بيننا اكثر من قبل بكثير ». وهنا تأتي عبارة ذات اهمية ، يبدو انها اضافتها فيما بعد : « انه لم يرد قط الزواج بي ، وقد عرفت ذلك منه عن طريق صمته . وانها في الواقع خطوته الاولى التي اجبت عليها . غير انه يعطي بوفرة تجعلني لا أُجرَح لانه لم يرد الزواج ».

وفي اوائل نيسان (ابريل) يعود الى « الهجوم » ، وتعود الى « الدفاع » . قال لها وهما في المكتبة في يوم احد ، ان ما كان يخطط له آنئذ وما كان يتطلع الى تحقيقه انما هو الزواج : « حالما اكون قد قهرت نتاجي ـ وقهرت جانبا صغيرا من العالم ، وهذا

يحتاج شيئا من الوقت ؛ لكننا ننتظر ، يا ماري » . تقول ماري مستغربة : « ويوم الجمعة كان قد قال ما قاله قبل اشهر ، من انه قد لا يتزوج قط ! » وتحاول تفسير هذا التطور ما بين الجمعة والاحد : « لقد عاش، بشكل من الاشكال ، مرحلة رئيسية في حياته خلال تلك الفترة – وتماشت علاقتنا مع نتاجه بشكل من الاشكال – وبشكل من الاشكال اصبحت حياتنا معا، لا بالروح فقط بل ايضا في دار واحدة وفي بيت واحد، جزءا جوهريا في تفكيره ومخططاته . وقلت له ما كنت قد قلته من قبل ، من اني اكبر سنا من ان اتزوج به – واعطيته مفهومي للتبدل الذي سيحصل حينما يتقدم هو في العمر ، اذ سيأخذ بالميل الى نساء لا يكنّ اكبر منه عمرا ، الى آخر ما هنالك ...منذ ذلك الوقت – مع انه لم يقدم جوابا على اعتراضي فيما يختص بسني – واكتفى بان ضحك عندما قلت باني قد درست القائمة : منذ اوديب الذي تزوج بامه ، الى محمد الذي تزوج بخديجة التي تكبره سنا ، الى براوننغ الذي تزوج باليزابيث باريت – واني لم اتزحزح عن شعوري بانه في حالنا نحن عمري عقبة لا تذلل – شعرت خلال اجتماعنا التالي بطوله – يوم الاثنين – ان تفكيره قد تبدل فعلا ، من صديق محب الى صديق زوج – والآن...ما زلت اشعر بذات الشعور – كما ان ما يخططه الآن انما يخططه لكلينا معا ...»

وتعترف ماري : « أن اقول اني لا اتوق توقا لا يمكن التعبير عنه للزواج ، لأن اقول كذبا – غير ان العوائق جلية واضحة بحيث لا اريد ان يحصل هذا الزواج ...»

المرة التالية التي يرد فيها ذكر الزواج بينهما ، هي في يومياتها لاواخر عام ١٩١٣ . تتحدث فيها عن لقاء معه ، وحديث واياه من القلب الى القلب – « واعترفت بالرغبة التي تنتابني بتكرار لان اتزوج منه – وسعادة ذاتي الكبرى لاني لم اتزوج منه – والصراع الذي ما ازال اعانيه من حين لحين قبل ان تعود ذاتي الكبرى فتتولى زمام الامر ». وتعود اليه ، تلميحا ، في نبذة لربيع العام ١٩١٥ ، عندما تزوره في نيويورك ، بعد ان تكون قد زارت ميشلين التي كانت قد تزوجت الآن ، وتقول انها لم تتمكن من التكلم معه وانها كانت على وشك البكاء – «ولم اود خليل ان يظن اني حزينة لاننا غير متزوجين – او اني اود ان اعيش معه – لاني لا اود ذلك – لانه هو لا يود ذلك ... »

ويظل الزواج ، « امتع جميع المواضيع » كما يسميه ، موضوعا للبحث النظري بينهما ، كما كان دائما . تسأله في رسالة (١٩١٥) عما قصده بقوله لها ان الزواج لا يزيد في الحياة ، وتذكّره بانه يعطي المرء سنة او سنتين من السحر والنشوة – وهذا شيء لا يمكن القول إن العزوبية تعطيه . فيرد في رسالة اليها بانه ليست في تاريخ العالم الا زواجات حقيقية قليلة جدا ، وكل العلاقات الاخرى علاقات غير خلاقة – وانجاب الاطفال لا يعني انجاب الحياة » . ويرى (١٩١٥) ان الزواج في غالب الاحيان فاشل ، ويتساءل : « لماذا تكون

النسوة العازبات اكثر امتاعا من النسوة المتزوجات ؟ لماذا ،عندما ترين امرأة تتأججبالحياة والنمو وهي في الخامسة والعشرين من عمرها ، وتتزوج من رجل مليء بالحياة والمتعةايضا ـ عندما تلتقينها بعد خمس سنين تجدينها ذابلة بليدة ـ لا من ناحية جسدية، بل ككيان ، كحياة ؟ لماذا تكون اقل ، كحياة ، رغم انها قد انجبت اطفالا ؟»

غير ان للزواج بعض منافع . كان يرافقها مرة (١٩١٣) للغداء ، وشاهدا سيول العمال خارجة من اماكن عملها . قال لها :«هذه المواكب تبعث في الحزن ـ لانها مواكب عبودية. الزواج هو الحل لها.عندما تحل مشكلة الزواج تحل هذه المشكلة ايضا» . وتثبت تفسيره: « ان حل الزواج يكمن في حل مشكلة الحبل الاختياري ـ التحكم في الحبل . ان الاثرياء اثرياء لان بوسعهم التحكم في العمل مقابل دفع اجور زهيدة . فاذا تحكمت النسوة العاملات بالحبل ، فانهن سينجبن عددا اقل من الاطفال ، وسيكون لزاما على المستخدمين ان يدفعوا اجورا اعلى، ولن يظل المستخدمون عبيدا ». ويعود الى حديث مماثل بعد عام من ذلك . يقول لها ان الاثرياء قد حلوا مشكلة واحدة ، مشكلة الولادة والانجاب. فلو لم يكن الفقراء حمقى لحلوا هم ايضا هذه المشكلة ، ولاسهموا في حل المشاكل الاخرى في الحياة . لكن منطق ماري غير منطقه . قالت ترد عليه : « لكن الاثرياء يصرفون مبالغ طائلة على منع الحبل والولادة ... وطريقة حياتهم تفضي هي بذاتها ، كما يقال ، الى اللاخصب . انهم يتجنبون الانجاب ، لكنهم لا يتجنبون الجماع . اما الفقراء ، فلكي يتجنبوا الانجاب عليهم ايضا ان يتجنبوا الجماع . وسيرد عليك الفقير قائلا : ان المسرات المتاحة لي قليلة ، أفأتخلى عن هذه ايضا ؟ » لكن جبران يصر على رأيه : « ... لو كنت انا فقيرا ، ولم اكن استطيع ان اضاجع زوجتي الا وسينتج عن الجماع حبل ، لتوقفت عن مضاجعتها ، وهذا كل ما في الامر . ولو فعل الفقراء مثل هذا ، لتوصلوا الى الحل... ان الرأسماليين والحكام يريدون ، عن وعي او عن غير وعي ، ان تزداد الولادات والانجابات، لانهم يريدون مزيدا من العمال الذين يدفعون لهم اجورا رخيصة ».

الجنس في كل شيء : في الروح كما في الجسد

لا ، لن يتم بينهما زواج . لكن هذا القرار ، الذي لم يكن الوصول اليه سهلا ، لم يحل مشكلة اخرى متصلة به ، بل هو زادها حدة والحاحا ـ مشكلة العلاقة الجنسية ما بينهما . ماري في يوميات ١٩١١ : « في ازدياد سعير الحب، وعدم توقعنا ان نتزوج ،تكمن صعوبة خيل لي انه من الافضل ان اجابهها معه في الحال . قال : انت صافية جدا ومقدسة جدا ، أوليس من الافضل ان تكون فينا رغبة وان نبدل هذه الرغبة ونرفعها الى شيء اسمى ـ من ان لا تكون فينا الرغبة اطلاقا ؟ اما انت فكوني كما انت على الدوام ، كما انت تماما ، ولا تعبأي بي قط . واذا سمعتني اريد ـ فلا تصغي الي » .

واضح من الاوراق ان اية علاقة جسدية حميمة بين جبران وماري كانت علاقة محدودة جزئية لم تصل ذروتها الطبيعية قط ، وان الطرف منهما الذي كان مسؤولا عن ابقائها محدودة جزئية وعن صدها عن الوصول الى حيث كان مقدرا لها ان تصل انما كان هو جبران لا ماري. غير ان ماري قنوعة مكتفية: اذا لم يحصل بينهما الاتصال الجسدي الذي كانت تود ان يحصل ، فهي راضية بمقدماته مغتبطة بها . يوميات ١٩١٣ : « الساعتان الاخيرتان في ٦ نيسان (ابريل) اضافتا ضوءا جديدا الى الاضواء التي ارى بها . ان خليل يأخذني قريبا جدا اليه : وبدون ان يتم جماع بيننا ، فانه يعطيني البهجة ، بهجة من يُشتَهى ويحَب ويداعَب » .

في صيف العام ذاته تقول لجبران انها قانعة بما يريد هو : « اذا اختفى العنصر الجنسي من حياتنا، رضيت ذلك ببساطة ولم اكبر الامر؛ واذا ازداد، رضيت ذلك ببساطة ولم اكبر الامر ؛ واذا بقي كما هو ، رضيت ذلك ببساطة ولم اكبر الامر ... وقبّلني ... برفق ليس له وجود حتى في الاحلام ، كما قد يقبل الله طفلا بين ذراعيه ».

من الاسلحة الرئيسية التي كان جبران يسلطها على ماري كلما شعر بان رغبتها قدجمحت وانها تحاول ان تقنعه بالتنفيذ، تخويفها من الحبل . وتقبل هي تحليله للوضع ، ونصحه بالا يتم بينهما الجماع خشية ان يؤدي الى حملها . ويستعرضان الوضع معا ذات يوم في اوائل ١٩١٤ . تقول: « تحدثنا عن المعلومات التي قد وصلت الينا بخصوص موانع الحبل ـ ذلك لاننا كنا قد تحدثنا فيما مضى عن الجماع ولم نكن نعرف ما تمكن معرفته عن الوقاية منه. ان المعلومات المتوفرة حتى الآن تؤيد قرارنا بالامتناع عنه . فان الطب لا يعرف حتى الوقت الحاضر وقاية امينة اكيدة ـ وما دام الاجهاض غير شرعي، وما دام اكتشاف المجتمع ان امرأة ما قد جامعت رجلا دون ان تكون متزوجة منه يؤدي الى نبذها منه ، فان الثمن باهظ جدا وليس لنا ان نتحمله . يقول خليل : لو كان هذا كل ما بوسعنا ان يكون لنا ، او الشيء الرئيسي فيه ، لاختلف الامر . اما وعندنا الشيء الكثير معا ، اشياء كثيرة متشابكة ، واتحادنا هذا قد نما بدون جماع ، واثبت انه غير متوقف على الجماع ـ فليست لنا حاجة لان نفكر بدفع مثل هذا الثمن لشيء ثانوي ، قد يكون مهما ولكنه ليس اكثر من شيء ثانوي ». وقال لي بعد الظهر وهو يحلق ذقنه : انك تهيجينني جسديا ـ وما زلت تفعلين منذ وقت طويل . حينما كنت اجلس على مقعدك امام الموقد غالبا ما كانت الرغبة الما عظيما جدا » . وفي مناسبة اخرى ، في آخر العام ذاته ، يشدد على فظائع نتيجة الجماع: « فكري في كيف يكون الوضع لو ان شيئا ما حدث لك ـ لك انت اكثر منه لي انا . فكري في اي طبيب ستذهبين اليه ؛ قد لا يتفوه بالاهانات ، لكنه بفكره سوف يلصق الاهانة بك . وقد تخسرين صحتك الى آخر حياتك ـ وانت الآن

بصحة ممتازة ، وقوية جدا ... ان حادثا من هذا النوع سيقضي على الكثير مما بيننا . اقول لك بحق ، اني سأترك هذه البلاد ولن اعود اليها مطلقا » .

وقالت له ذات مرة (١٩١٣) ، في معرض حديث مثل هذا عن الخوف من الحمل كعائق رئيسي في وجه تحقيق رغبتها الجنسية ، انها تتمنى لو انها امرأة متزوجة ، او ممثلة ، فتكون بذا ذات خبرة في الجماع الجنسي وبامان من النتائج . لكن ضميرها المرهف سرعان ما يوبخها على امنيتها هذه وعلى التعبير عنها له. ففي الصباح التالي تدرك انها كانت غير صادقة : فهي تخشى انه قد يُفهم مما قالته ان جبران ناقم على عدم حدوث الجماع بينهما او انه لا يتقبل الامر ببساطة — في حين « انها مشيئته هو الا يحصل جماع بيننا ».

ويقول لها (١٩١٤) انه يجدها مليئة بالحياة والحيوية والحب ، وان جسدها ليس فيه ما هو غير مؤثر ، وانها قوية البنية وتتمتع بصحة سليمة ـ وان النساء لسن جميعا كذلك : من اجل هذا فانه اصعب عليها ان تضمن السلامة من نتائج الجماع مما هي الحال على غيرها من النساء . ويردف : « وانا ايضا ، بالرغم من ضعفي الجسماني ، فيّ دفء وفير من الناحية الجنسية وليس فيّ ما هو غير عابىء او مهتم ؛ واعتقد ان فيّ ولا شك شيئا حيويا جدا ايضا ـ لاني اعتقد ان جزءا كبيرا من قوتي الجنسية يتحول وينصب في نتاجي ».

بعد ذلك باشهر ، في نيسان (ابريل) ، تعود ماري الى الموضوع ذاته . « في احيان عديدة كنا نتألم الما شديدا من التشوق الى الجنس والامتناع عنه . وفي اجتماعنا الاخير كان العذاب اليما الى حد جعلنا ندرك ، بدون كلام ، ان علينا ان نحرر انفسنا من هذا التوتر. تبين لي من رسومه ... انه كان يفكر في الامر ويجد حلا له عن طريقها . وانا ايضا كنت افكر . فكنت قد عرفت ، عن طريق الصدفة ، عن موانع اكيدة تعوق الحبل. لكني لم احضرها معي اليوم . ذهبت اليه لا لقصد الا لان اكون معه بصورة كاملة بقدر المستطاع. ان المه اشد من المي ، وكيانه قد تحطم بسبب ذلك اكثر من كياني ... عندما استمع اليه بايمان ، فان ما اسمعه انما هو دائما من الله . وهكذا فاني ذهبت اليوم اليه بعقل منفتح ، وكم كان كل شيء سهلا !... لمس واحدنا الآخر بحرية ـ وغالبا ما قبّلني او قبلته ـ ولم تكن قبلاتنا قط اكثر مما كانت عليه اليوم حلاوة ، ولم يكن قلبانا اكثر اقترابا .. عرفنا السكينة والسلوى والانتعاش . ولم يكن صعبا ان نترك باب العذاب مغلقا . وانفتح امامنا ، كما لم يحدث قط من قبل ، جماع خفي . ولم يبدُ ان نقص الوصال الجسدي وانعدامه نقص ، ولم يفرض ذاته علينا . وخطر ببالي خاطر : كم سيكون الجماع الآن احلى بكثير ، لو استطعنا ان نحققه ، حتى مما كان يظهر قبلا انه حلو ـ وخيل لي ان الخاطر ذاته جال ببال خليل. لكنه جاء برفق ، ولم يرافقه الم. مرة خلال اليوم احسست ان خطرا يتهدده — لكني شعرت به يمّحي . ولم اشعر قط باني محبوبة كما شعرت اليوم».

وتزوره من جديد في حزيران (يونيو) ، « زيارة خطيرة الشأن » . شعرت خلالها ، كما تقول ، بحضور الرغبة اللاواعية في جبران ، وكانت شيئا جميلا جدا . لكن ذلك لم يعن لها ان عليها ان يستثارا . غير ان جبران استثير في المساء — « واعرف ان الاستثارة — ولا جماع — حملت له الما حادا وعذابا صحيحا . قال : هذا سيعني مرض شهر . وقال ايضا : هذا غلط ، يا ماري » . في تلك الزيارة قال جبران ان في كل انسان ثلاثة مراكز ، هي الرأس والقلب والجنس ، وان هذا او ذاك منها يتحكم في كل انسان . اما في حالي انا ، فان الرأس والقلب تحكما فيّ حتى سنوات قليلة خلت — بعد ذلك تحكم الجنس — وعندما اقول الجنس اقصد الجنس معك » . ثم عاد الرأس والقلب الى الحكم — «واريدك ان تساعديني في ذلك » . تضيف ماري : « فقلت له : يا سيدي العزيز الهرم ، يبدو جليا انه ينبغي علينا الا نتضاجع . اما عدا هذا فكيف لنا ان نقرر ؟ علينا ان نترك الغد للغد » . بعد ذلك قال لها : « طبعا انا احبك ، وطبعا انا اشتهيك . اني اشتهيك اكثر مما تشتهينني انت . في اللحظة التي تدخلين فيها احس بك في كل ركن من اركان الغرفة . واحبك كما لا يحب رجل امرأة . غير ان الاشياء الجسدية تعمر يوما ، ثم تزول . وانا لا اريد شيئا عظيما من الاشياء التي بيننا ان تزول . واختبارنا الجسدي اختبار محدود جدا . اننا لا نعرف ماذا سيعني ، ولا نعرف ماذا قد يأخذ معه حين يزول . ان علاقتنا قوية جدا — لكننا لا نعرف اذا كانت تستطيع ان تتحمل اي عبء قد نضعه عليها ... اني بحاجة الى مساعدتك . اني اضع ذاتي في يديك . لم اقل مثل هذه الكلمات قط لاي مخلوق آخر — لم يحدث لي قط مثل هذا الاختبار مع اي شخص آخر ... عندما اجتاز مثل هذا الاختبار ، لا يكون فيّ نفع في اليوم التالي — ثم يمر يوم آخر ، ويوم من بعده ، قبل ان اعود الى نفسي والى حياتي الهادئة » . ثم قال : « ان العلاقات تكون نحيفة وطويلة او تكون ثخينة وقصيرة . فايهما تختارين ؟ قلت : ثخينة وطويلة . فضحك وقال : وانا ايضا كنت لاختار ذلك ، لو كان هذا ممكنا — لكن هذا في الواقع يبدو مستحيلا . انا اختارها نحيفة وطويلة . فانا اريد علاقتنا ان تدوم ». ثم قالت له ماري ان كل شيء فيها يحبه ، وانها تعتقد ان اطراف شعرها تحبه ورؤوس اظافرها تحبه . ولما قال لها انه سيعمل على لوحة وسيسمح لها بمراقبته اخذت ترقص فرحا وتؤرجحه وقد حملته بين ذراعيها ، وتقول له : آه ، يا عملاقي العزيز . « فضحك ، واعاد اللفظة ، كما يفعل كلما اسميته اسم تحبب جديدا . قال : انك تقذفين بعملاقك هنا وهناك . قلت : انما لانه يسمح لي بذلك ».

وقبيل عيد الميلاد من العام ذاته تزوره ايضا في نيويورك ، ويدور الحديث حول الشذوذ الجنسي عند المرأة . ويقول انه لا ينفر منه كما يفعل الكثيرون ، غير انه لا يفهمه . وتفسره ماري له : ان اكثر النساء يملن للنساء انما عندما يكنّ ناضجات جنسيا لكنهن لا

يلتقين الرجل الكفء المناسب بيد انهن يجدن امرأة يمكن الانسجام واياها . « وسألته ان كان يود ان يستمع الى اختباري الخاص في هذا المجال مع ل . قال نعم . فاخبرته. ذلك الاختبار مع ل. كان اختبارا في غاية الجمال والافادة بالنسبة اليّ — لكنني شعرت منذ البداية حتى النهاية انه ليس اختبارا من النوع النهائي —ولم احصل قط على الراحة والسكينة من جراء مداعبتها لي مداعبة جنسية ـ مع انها هي حظيت بتلك الراحة والسكينة ـ كل ما حظيت انا به كان التهيج ـ في حين ان مجرد وجودي مع خليل ، حتى وان لم تتخلله ادنى مداعبة ، يمنحني الراحة والسكينة المطلقة — ولم يحدث قط اني لم انم نوما مريحا بعد رجوعي من عنده ، مع اننا لم نعرف الجماع ابدا » .

وفي اليوم التالي كانا يتناولان الطعام ، وسألته اذا كانت تعجبه الارطال العشرة التي اضافتها الى وزنها منذ ان نصحها هو بان تفعل ذلك قبل ثلاثة شهور. قال انه لم يلاحظها. وعندما عادا الى الستوديو « اطلعته على بطة رجلي وشددت تنورتي الى القسم الاعلى من ساقي كي يتمكن من الرؤية . وقلت له : أنحيل هذا ؟ أتعتقد ان عليه ان يكون اضخم؟ قال خليل : غريب ! لم ارَ ساقك قط ـ وكنت احكم عليها على اساس ذراعك ، كما يفعل المرء عادة . قلت له : واني مغطاة حسنا مثل هذا في كل جزء مني. وسألته ان كان بوده ان ينظر اليّ ويحكم لنفسه . اجاب : لو ان هذه الغرفة لم تكن باردة ، لكنت طلبت اليك ان تريني . فأدفأنا الغرفة ، ونزعت عني ملابسي . وقال خليل : مذهل ! لست نحيلة ابدا . بل انت ممتلئة من هنا (عند الفخذين) فما تحت اكثر بكثير منك عند الكتفين . انك قوية جدا ، ومبنية بقوة ، ومتناسبة تناسبا جميلا . لكنك حتما لا توحين بان فيك ما فيك من لحم . لا ، لست تحتاجين الى اضافة اي وزن ـ فانت بالتمام ما يجب ان تكوني . ـ غير انه قال ان رؤيته لي عارية يستثيره. قال : ان النساء اللواتي من نوعك يستثرن الرجال . ان الرجال يخافون ان يروك . ذلك انه لا يمكنهم الا ان يستثاروا . ـ وهكذا فاني عدت فارتديت ملابسي ، لاننا لا نريد تعقيد الامور جنسيا . لكن خليل وضع ذراعيه حول عنقي وقبلني في صدري ونحن واقفان . وظللت الليل بطوله احس بذلك التماس ، ولمدة ثلاثة ايام من بعده . لقد كانت روح خليل .... وعندما رأيت خليل مستثارا ـ عندما قال ذلك ـ خشيت انه سيعاني آلاما كالتي رأيته يعانيها قبلا . قال : لا ، ستعبر ، لقد بدأت تعبر . وسارت الامور على ما يرام ... لم اكن قد ادركت فيما مضى ان خليل لم يكن قد رآني قط . كنت اخلع ملابسي لابدّلها في غرفته —وكنت انا قد رأيته هو . لكنني سعيدة لانه قد رآني الآن » . ثم تقول : « ويخيل لي اني لو كنت في التسعين من عمري وكان هو في الثمانين ، فاني لكنت ما ازال احن الى التماس مع جسده ـ وليكن كيفما كان ، ساكنا وضعيفا وذاويا ـ لكنت لا ازال اتوق الى ان يكون

قريبا جدا اليّ ـ مع ان جسدي هو ايضا ذاوٍ وضعيف وساكن ـ لمجرد انه جسده هو».

وفي آخر ايام هذا العام الحاسم يكون في بوسطن . « واستلقى ومد ذراعه لاستلقي الى جانبه ورأسي على كتفه . وعرفت انه كان يفكر في الليلة قبل الماضية ـ واضطجعت صامتة، وذراعي تحيط به من تحت معطفه . ولم يقطع الصمت الا ليسألني هل اشعر بالدفء . وعندما قلت : نعم ، فاني جالسة على موقد ، ضحك وقال : أأنا موقدك ـ اسود ، ومدخن، وذو انبوب طويل ؟ مع اني لست اعرف اين هو الانبوب الطويل »! ثم تقول: « لا شك ان خليل قرر ان يقيت جوعي للمسته. فكما يفعل الشبان عندما يضعون اذرعهم حول اعناق صديقاتهم ، كانت يده مستقرة باستمرار عليّ او تتحرك عليّ صعودا وهبوطا ـ وكان يقبّلني من حين لحين ـ في رقبتي او في يدي او في عيني ـ ثم قبلني في فمي ، بشهوة . وتهيج ، وعراه الشحوب ـ فاستويت في جلستي ، وقلت : الا ترغب ان ترى الصور التي احضرتها لرأس المسيح لدافينشي ؟ قال : بلى ... »

كان عام ١٩١٤ اهم الاعوام بالنسبة الى ماري وجبران والعلاقة الجسدية بينهما . وهي العلاقة التي ستسير ، بعد ذلك العام ، في خط النزول لا الصعود. ولا شك ان ماري ادركت انها لن تنجح في « التحرر » من اللاجنس ، لان جبران عازم عزما اكيدا على التمنع ، مهما كانت ذرائعه لاقناعها بوجهة نظره . ولا شك ايضا ان جبران كان واثقا من انها ، مع الزمن والتكرار ، ستقبل بكل شيء يريده هو ويقرره ـ الى حد انه يعرف انه عندما يقول لها في ١٩١٥ ان كل مرحلة من مراحل الحياة فيها علاقتها الجنسية الخاصة بها وانواع الجماع والاطفال الخاصة بها ، و « ان هناك اطفالا غير اطفال الجسد . فانت وانا ، على سبيل المثال ، بيننا انواع مختلفة من الجماع، طيلة الوقت » ، او عندما يقول لها (١٩٢٢) ان بينهما هما علاقات جنسية عديدة ، ولكن غير جسدية ، « فالجنس موجود في كل شيء: في الروح كما في الجسد » ، ـ يعرف انه حين يقول هذا للمرأة التي تحبه ، والتي تتحرق للنوع الرئيسي من انواع الجماع ، والتي عندما تمشي في الشارع فانها تسمع جميع النساء يصرخن في وجهها: الجنس، الجنس، فانها سترضى بما يقول وستصمت عن اي رد معارض محتج . وعندما يستعيضان فيما بعد عن العلاقات الجسدية بالحديث عنها ، فانه يعرف انه سيمنحها ، بذلك وحده ، سعادة ونشوة واكتفاء .

وتمر سنوات غير قليلة، ويأتي عام ١٩٢٢، وتكون ماري قد شارفت على عامها الخمسين، عندما تبدأ تفكر بالزواج من رجل في ولاية جورجيا كان زوجا لقريبة لها وترمل قبل وقت غير طويل . مرات عديدة ، في ١٩٢٢ وفي ١٩٢٣ ، تستشير جبران حول هذا الزواج. ويقرها عليه. انما يسألها ان كانت تفضل بعد زواجها ان يستهل رسائله لها بعبارة « عزيزتي ماري » عوضا عن « حبيبتي ماري » .

ويتم الزواج في ٧ ايار (مايو) ١٩٢٦ ، وتقابل جبران للمرة الاخيرة في ١٣ منه ، وتسكن في سافانا بجورجيا ، وتصبح اوراق مذكراتها موجزة عابرة ـ الى ان نصل الى ورقة يوم الجمعة في ١٠ نيسان (ابريل)١٩٣١ ونقرأ فيها : « مات جبران الساعة ١٠،٥٠ مساء ـ لكنني لم اعرف بذلك حتى وصلتني برقية ماري (اي مريانا) يوم الاحد ». ونراها ، في نبذة الاحد ، يوم استلامها البرقية ، في طريقها الى بوسطن لتشييع جبران ورؤية مريانا وتسوية الامور الناجمة عن وفاته .

آذيتني كما لم يؤذني انسان قط

اذا كانت سنة ١٩١٤ تسجل اعلى تقدم وصلته العلاقة الحبية بين جبران وماري ، فان سنة ١٩١٥ تسجل اعنف خصام ونفور قام بينهما . واذا كانت ماري لعبت الدور الايجابي والاهم في علاقة الحب ، فان جبران لعب الدور الايجابي والاهم في علاقة الخصام .

لكن اول سوء تفاهم حصل بينهما كان سابقا لذلك التاريخ . فقد حصل اول ما حصل في ١٩١٣ ، بسبب الجانب المادي من علاقة ماري به . قالت له في معرض الحديث ان المال جعل العلاقة بينهما ممكنة ـ ثم ادركت انها اخطأت بحقه : فالواقع ان العلاقة هي التي جعلت المال ممكنا . وقررت ان توضح له ذلك في اليوم التالي ، وحينما قالته له ثار في وجهها، وذكّرها انها قد قالت الشيء ذاته ثلاث مرات من قبل،مما يدل انها كانت تعتقد ان بوسعها شراء صداقته بالمال ـ مع انها حين اعطته اولا قالت ان المبلغ لا علاقة له بصلة شخصية بينهما . وقال لها انه مرارا عديدة كان يسأل نفسه ألم يرتكب خطأ حينما قبل ان يذهب الى باريس على نفقتها . وقال ان الاتفاق الذي عملاه في الربيع الفائت ، حول تسديد الدين عن طريق لوحاته ، جعله يظن ان الامور قد سويت ـ حتى كانت ليلة الامس، والآن عادت اليه الحيرة والشكوك . « كل ما اريده ان تقولي لي لماذا في الواقع اعطيتني النقود ـ وعندها ساعرف ما هو موقفي . قولي لي ببساطة كي لا ارتكب خطأ . اكانت هدية؟ان كان هذا هو الواقع فسأكيف ذاتي تبعا لذلك . اكان مقصودا بها ان تنشىء رباطا بيننا ؟ قولي لي ، وسأعرف كيف اتصرف ... لكنني لا استطيع البقاء في شك وحيرة . لقد كان هذا مبعث شيء من اصعب الاشياء في حياتي ... كل مرة كنت اقضي شهورا بكاملها اتألم الما فظيعا من ذلك » . وتذكر له ماري انها اعطته المبلغ في ١٩٠٨ كهبة ـ لكن وهي تعرف انه سيعتبره هو قرضا . وقالت انها اعتبرته هبة لانها كانت تعتقد ان وقتا طويلا سيمر قبل ان يكون في وسعه ان يعيده اليها ، وانه عندما يتمكن من ذلك سيسمح لها بان تلغي الدين اذا شعرت انه ثقيل عليه . وذكّرته بانها لم تحتفظ بسجل للمبالغ المقدمة له .

وتبادلا بعد ايام عبارات مرة ،ندمت بعدها عليها،وكتبت في يومياتها انها تعرف الآن

ما يحس به من وحشة ومن الم اكثر مما كانت تعرف فيما مضى ، وان قسوتها نحوه لم تكن جلية لها في السابق . وتذكر انه قال لها : « لقد آذيتني كما لم يؤذني انسان آخر قط . ليس لاحد ما لك انت من قوة على ايذائي . لقد قلت لي اشياء مرة جدا لم يقلها لي احد ما قط . لقد جعلتني اتألم اكثر تقريبا مما جعلني اي شيء في حياتي...» وقال لها ايضا: « انا مثل طفل ، ولست مثل كلب . الكلب يعود اليك بعد ان تصديه مائة مرة ، كأن شيئا لم يحدث . لكن الطفل لا يعود ».

غير ان المشاحنات ، واستعراض الماضي بمرارة، تصبح اشد وتتكرر اكثر في ١٩١٥. يصرفان في ١٠ نيسان (ابريل) ثلاث ساعات كاملة يتحدثان عن علاقتهما ما بين ١٩١٠ و١٩١٣ ، ويعاتب واحدهما الآخر ـ او ، وهو الاصح ، يعاتب جبران ماري ، وتعاتب ماري كلا من جبران عتابا رقيقا ونفسها عتابا شديدا . ويروي لها جبران شكواه : عاد من باريس ، « وجئتك ، ووهبتك قلبي، بكامله تماما ـ بكل بساطة ، بكل صراحة، بكل اخلاص . كنت مجرد صبي ، يضع كل ما هو وكل ما له في يديك . وقابلتني بكل برود ، وبكل سخرية » . تقول : « وروى لي اشياء قلتها له ـ اتذكرها الآن بعد ان اعادها عليّ ـ واشياء فعلتها ـ ورأيت ذاتي كما لم اكن قد رأيتها من قبل . اني لم اومن به ـ بدون ادنى مبرر ـ وثابرت على ذلك ـ وعاملت قلبه وكأنه قطعة من الطوب...» وقال لها : « ظللت اتساءل : لماذا ؟ لماذا ؟ ولم اعثر على جواب . كنت مهتمة بنتاجي ـ لكني كنت احضر لك قلبي مع نتاجي طيلة الوقت . كنت اعمل في تلك الغرفة الصغيرة، ثم اهرع اليك بما لديّ ـ سواء اكان ما زال رطبا ام كان قد جف ـ في الامسيتين كل اسبوع ـ وتعرفين اني كنت انتظر قدومها انتظارا في الامسيات الاخرى الباقية ». وتقول ماري : « وبينما كان يتكلم كنت اخاطب نفسي : وكنت تظنين انك انت المحبة اللا محبوبة يا ماري ! » . وتروح تلوم ذاتها على تقصيرها نحوه .

لقد عرف جبران ، منذ بداية هذه المناوشات اللفظية والتذكارات المريرة للماضي ، ليس فحسب ما في صدر ماري من حب، بل ايضا ما في ضميرها من قابلية للندامة . عرف ان هذه المرأة البروتستانتية يثقلها الاحساس بالاثم . فلعب على هذا الوتر فيها ، ولم يترك مناسبة لم يذكّرها فيها باجرامها نحوه في الماضي ـ واذ عرف مدى حبها ، فانه اقنعها بانه لولا تصرفاتها هي لكان حبهما قد اينع وكان قد اتخذ تاريخا مختلفا.

في اليوم التالي تسرع اليه مغمومة للاعتراف بالخطايا . قالت له : « انا ادرك الآن ان اصل هذا كله يعود اليّ انا . فبدلا من التشكيك في حبك كان عليّ ان ارى ان تقديمك حبك لي كان احلى شيء واروع شيء يمكن ان يقدمه كائن بشري لآخر. وعندما اكتشفنا الهفوة فيما يتعلق بالزواج ، كان عليّ ان ادرك ان الهفوة لم يكن يمكن ان تنشأ الا عن

الحب وانها هي نفسها كانت حبا ورفقا – بدلا من ان اشعر بالاساءة ، كما شعرت،واقرر الا اصدقك من جديد لئلا تسيء اليّ من جديد . واني ادرك الآن كم كنت قاسية وغير محبة ، وكم كانت معرفتي عن الحب ضئيلة ، واني لم اكن اومن . والحب بدون الايمان ليس حبا » .

وانتقلا الى موضوع آخر كانت تحيط به المرارة – موضوع « نظافته جنسيا » . تقول ماري انها جعلتـه يدرك نهائيا انها كانت تعرف على الدوام انه نظيف جنسيا ، وذلك على الرغم من كل ما قالته لها عنه ميشلين وشارلوت –وانها لو لم تكن تعرف ذلك لكانت ابتعدت عنه ولما كانت على صلة وثيقة وحميمة به . فرد جبران قائلا انه ينحدر من جيل من الاسلاف الغريبين ، وانه منأنف من الناحية الجسدية وشديد الحياء والخفر،وانه يحجم عن مس كثير من الناس ، وان صدف ان مسهم سارع الى غسل يديه – وظل اياما بعدها يحس بتلك اللمسة . « اني ببساطة لم يكن يمكنني ان احيا الحيـاة التي نسبتها اليّ شارلوت وميشلين » .

ظل هذا الاحساس بالاثم يرهق صدرها وضميرها ، فكتبت له بعد اسبوع رسالة جاء فيها : « خشيت اني قد اسأت الى ذلك الشيء الذي بيننا وجعلته الى الابد اقل مما كان ممكنا ان يكون . ان هذا لهو اقسى قصاص يمكن ان يوجه اليّ ، الى ابد الآبدين ... اني آسفة على ما اتلفته ، وعلى كل الم سببته لك – وآسفة لان الاسف لا يستطيع ان يلغي مفعول ما قد فعلت » .

وفي حزيران (يونيو) يغضب جبران عليها لتذمرها من رفضه ان يسافرا معا الى اي مكان او ان يذهبا معا الى الجبال او ان يقوم معها باي نشاط عدا الزيارات . تقول معتذرة : « كان حمقا مني ان اقول هذا ، لاني افهم الآن انه لم يكن يمكنه ان يرضى بمثل هـذا الارتباط الدائم بي . وشعرت اني قد آذيته . وتحدثنا عن الموضوع في طريق العودة . قال خليل : ان فيك يا ماري اربعة اشخاص مختلفين، او خمسة –اشخاصا كبارا طيبين احبهم واستمتع بهم – لكن هناك شخصا آخر يهب من حين لحين ، لا افهمه . لقد آذاني على الدوام ، وما زال يؤذيني » . وراح يؤنبها على معاملتها له في ١٩١٠ و١٩١١ ، وعلى تفضيلها شارلوت عليه هو ، ويحملها تبعة عقمه الفني في تلك الفترة –« وذلك بسبب تعذيبك لي طيلة الوقت . ولو انك خطوت خطوة اخرى للامام ، لقلت لك : اني اكرهك ! ولا اريد ان ارى وجهك قط من جديد ما دمت حية ! » ويتحدثان مرة اخرى عن الامراض الزهرية : ويقول لها جبران ، بشيء من التأنيب ، انه ان احب امرأة ما فهل تظن هي (اي ماري) انه كان سيتأثر الى ادنى حد فيما يختص بالزواج منها ولتكن حالتها الصحية ما تكن ؟ وتسأله ماري : لكن الم يكن ليهتم بان يعرف ان كانت مصابة بذلك المرض

ام لا ، كيما يساعدها على نوال العلاج ؟ ويرد بالايجاب ، لكنه يستطرد : لماذا لم تسأله هو هذا السؤال قبل ان تجيبه بنعم ؟ ولماذ اجابته بنعم اذا كانت تحب شارلوت اكثر مما تحبه هو ؟

وبعد ايام ، في الشهر ذاته ، يجتمعان من جديد في نيويورك ، ويعودان لبحث الماضي والآلام التي عاناها نتيجة لصدودها في القديم . ويقول لها موبخا : « لم اعرف قط ما الذي فعلته لاجعلك هكذا – او كيف اعمل الشيء الذي يكون الشيء الصحيح ... كل ما استطعت ان افعل كان ان اقول لذاتي : ابتلع هذا ايضا . وابتلعته . لكنه كان مرا ... صار شعوري نحو كل الناس مرا ... لاني في داخلي كنت ارتعش من استهزائك او برودك ». وتعود (كما عرف انها ستعود) لتلاوة فعل الندامة : « اخبرته اني لبثت الاسبوع المنصرم كله افكر في هذا الامر : اني ادرك اني لم اتألم نصف ما عليّ ان اتألم ، وان الالم هو الشيء ، او احد الاشياء العظيمة ، الذي يجعله ما هو ، واني ادركت الآن اكثر من اي وقت مضى انه تألم وكم تألم . فقال خليل : لو ان الالم يجعل الانسان عظيما ، يا ماري ، لكنت الآن بعظمة الجبل . قلت له : وانك لجبل » . واخذت تؤكد له كم كان رائعا تجاهها على الدوام ، وانها هي التي كانت تسيء فهمه ، وانها الآن تدرك كل شيء ، ومنذ ١٩١٣ لم يعد يؤذيها سوى الامتناع عن الوصال الجسدي – وقد بطل هذا الآن يؤذيها . قال : « يبدو ان الجنس قد مات فيّ . اعتقد ان مراكز اخرى فيّ تحتل الآن المقام الاعلى . قبل حوالي سنة حاولت ان اخفف من قوته فيّ – وقبل شهرين او ثلاثة بدا انه زال – لا اظن انه قد مات – فربما لم يمت شبابي بعد . قد يعود . لكني في الوقت الحاضر مليء باشياء اخرى ». وقبل ندامتها منها ، وقال لها ، وكأنه يمر بيده على جبينها ويمسح عنها ما اعترفت به من خطيئة : « بالطبع لقد عرفت يا ماري عن هذا الاسبوع وعما تحملت فيه من الم . لا تظني انك تتألمين لوحدك . لقد عرفت على الدوام اننا نفعل الاشياء شراكة – واننا نفعل » .

لكنها لم تشعر انها كفرت كفاية . فسافرت الى ولاية وشنطن ، وكتبت له رسالة طويلة في وسط تموز (يوليو) قرعت فيها صدرها ما طاب لها ان تقرع : « اني اعرف الآن يا خليل اني قد اخطأت بحقك قدر ما كان بوسعي ان اخطىء ، لانك اخذتني الى ارقّ بؤرة في فؤادك – ومن هناك سددت لك كل لكمة وكل جرح ... اني لم اعترف بك ولم اقر بك – بك انت الحقيقي ، بالانسان خليل . مع انك بكاملك ، بذاتك ، جئت اليّ ، وجئت اليّ بدون حساب ، ولم تطلب الا ان تكون انت انت وان اكون انا انا ... ولهذا فما اسميته حبا وصداقة كان ينقصه ما هو في صميم الحب والصداقة ... ادرك اني آذيتك وشوهتك في الصميم : في صحتك ، وفي نتاجك ، وفي علاقتك بالآخرين – في ينبوع

الحياة ، في الصميم ذاته ... ان روحي عاملتك كأنك دوني – بل انها لم تنهض ، تكريما واحتراما لك ... لقد اثمت تجاهك ، اثما طويلا مستمرا ، يا خليل... الخ الخ » . ويجيبها جوابا نبيلا متسامحا – كيف لا ، وتفصله عنها ، وهو في نيويورك ، على الشاطىء الشرقي من الولايات المتحدة ، وهي في ولاية وشنطن ، على الشاطىء الغربي منها ، مسافة شاسعة ؟ ويقول لها ان تلك السنوات الخمس قد انقضت وان بوسعهما الآن ان يبدأا فصلا جديدا من فصول علاقتهما ، وان تلك السنوات رغم ما كان فيها من الم عظيم كانت سنوات خلاقة ، وانهما الآن ينعمان بروحين اكثر بساطة مما كانتا في الماضي . وينهي رسالته بغفران شامل : « بدون بركتك لن اتمكن من متابعة نتاجي – لانك قد حررت يديّ ، وان لم تستمري في تحريرهما بفرح ، فانهما لن تستمرا في العمل » .

وقضت جانبا من الصيف بعيدة عنه ، تفكر في علاقتهما معا . وعادت لها جميع احداث الماضي بشكل جديد ، ورأت كم كانت مخطئة بحقه ، وكم كانت قاسية تجاهه . واستغرق هذا التفحص الذاتي شهرا كاملا – « واخيرا ادركت لماذا حصل ان ذلك الذي كان يمكن ان يكون مدهشا جدا وجميلا جدا كان صعبا جدا عليه : ان الحب امر بسيط – وانا لم احبه ببساطة » . بعد حلول هذا الادراك عليها ، لبثت وحدها في عزلتها اسبوعين ونصف اسبوع اخرى لا تكتب ولا تقرأ وتكتفي بالتفكير . ثم تركت العزلة وعادت الى بوسطن لتخبر جبران بهذا . وجاء ، واخبرته – قال انه ليس لديه ما يقوله ، « لكني لا انتظر منك صفعات اخرى على الرأس بعد الآن » .

لكن بعد ايام ثلاثة فقط عاد العتاب . وعرفت ماري مظهرا جديدا من مظاهر الالم الذي قاساه في الماضي من اجلها ، وسببا جديدا له . ذكّرها بانها قالت له ذات مرة ان صغر حجمه عامل يجعل فئة من النساء الامريكيات لا تحس به ؛ وبانها انتقدت مرة عاداته على المائدة – مع ان « عاداته على المائدة ، كعاداته في كل شيء ، هي اجمل عادات عرفتها قط » .

وخف العتاب بعد ذلك ، وان لم يتوقف تماما . وبعد سبع سنين ، في الوقت (١٩٢٢) الذي بدأت تفكر فيه جديا بالزواج من ج . فلورنس مينيس ، كانت تزوره ذات يوم في نيويورك ، ودار الحديث ، الطويل جدا ، على وجهة نظره هو في علاقتهما كلها ، عاد فيه بالطبع الى السنوات الاولى ، السنوات التي جرحته فيها مرارا وتكرارا – كما قال لها مرارا وتكرارا . لكن هذا الحديث الاخير في السلسلة لم يكن لمجرد العتاب بل كان حديث اعتراف وحب ايضا . حدثها كيف ان شيئا فيها اجتذبه اليها منذ رآها لاول مرة في ١٩٠٤ في الصالة التي كان يعرض فيها رسومه ، وراح يستعرض ماجريات صلتهما : دعوتها اياه الى المدرسة ، زياراته المتتالية ، تعريفها اياه الى شارلوت وميشلين ، العون المادي والفترة في باريس – « وعندما رجعت الى بوسطن كنت كما عرفتك دوما : روحا حلوة حنونة مدهشة . ثم

في اليوم ذاته الذي حادثتك فيه عن الزواج، بدأت تؤذينني ، وظللت تؤذينني ». ويقول انها كانت كأنها امرأتان مختلفتان ، واحدة تؤذيه والاخرى تسوي الامر وتلغي الاذية. ويسرد بعضا من الامثلة على اساءاتها له، نقرأ فيها مثلا او مثلين لم نكن قد سمعنا عنهما في مشاحناتهما السابقة . فهو يروي لها ان شارلوت قالت له مرة في نيويورك ان ماري جاءت الى المدينة وبقيت فيها يومين او ثلاثة في شقتها ، وانها طلبت اليها الا تخبر جبران عن وجودها هناك — « والحقيقة اني شعرت عندها بان السفينة قد غاصت من تحتي » . وهو يذكّرها بامسية كان فيها معها في بوسطن ، وقرع الجرس ، وعندما عرفت ان القادم هو اخوها وزوجته ترددت كثيرا قبل ان تفتح لهما الباب ، لانها لم ترغب ان يراه اخوها هناك؛ وانها بعد ان فعلت ، لبثت محرجة . ثم يكرر امثلة اخرى اصبحت مألوفة لدينا، مما جعله يتألم ويتبدل . لكنه يؤكد لها الآن ، بعد مرور السنين ، ان الاشياء الطفيفة فيه هي وحدها التي تبدلت، اما الاشياء العميقة فظلت وتظل كما هي — « وساحبك الى الابد، واعرف اني احببتك من قبل ان نلتقي فعلا بوقت طويل . عرفت هذا عندما رأيتك اول مرة . كان هـــذا قدرا . اننا معا مثل هذا » (وشبك يديه احـــداهما بالاخرى) «ولن يفصلنا شيء واحدنا عن الآخر. انك لا تستطيعين ان تبدلي علاقتنا، ولا انا استطيع، ولا الله نفسه يستطيع » . ويقول لها انه عرف نساء كثيرات ، سوريات و امريكيات وفرنسيات ، من احسن العائلات ومتعلمات وذكيات وحسناوات — لكنه لم يحب سواها، وكان يضجر منهن وسرعان ما يبتغي ان يتركهن ليعود الى عالمه هو الخاص — « اما انت وانا فعالمنا الخاص هو هو ... واقول هذا لك بوضوح ، واريدك ان تتذكريه على الدوام، انت اعز شخص عليّ في العالم كله . وتلك القرابة ، تلك الوحدة في كياننا الروحي ، لن تتبدل حتى ولو تزوجتِ سبع مرات من سبعة رجال آخرين . ان امور الجنس امور مؤقتة ، دائما . ولو اننا اقمنا ما يسمونه بعلاقة جنسية ، لكانت هذه العلاقة قد فرقت بيننا قبل الآن... والزواج ايضا كان ليفرقنا... » ثم قال لها : « وهناك شيء آخر اريد ان اقوله لك . انك تتحدثين عن ذاتك وكأنك بعيدة عن الجمال . تعرفين طبعا ان وجهك بديع جدا وان فيه جمالا خاصا لا يوجد في سواك . الا تعرفين اني اجد فيك جمالا ؟ الا تعرفين اني استعمل وجهك مرة بعد مرة في رسومي - لا في شبه للاصل، انما اصورك انت؟»

غير انه يجدر بنا ان نذكر هنا ان علاقتهما ، وان عمرت فترة بالمشاحنات ، فانها كثيرا ما كانت ايضا علاقة مرحة فرحة . وماري تروي نوادر متعددة عن البهجة والمتعة في صلاتهما ، وتسأله (١٩٢٣) ان كان سيجعلها تضحك عندما يلتقيان في الفردوس — لانها لا تعتقد انهما التقيا مرة واحدة ، حتى حينما كانا حزينين ، لم يجعلها فيها تضحك وتضحك. وهو يكتب (١٩١٢) انهما من حين لآخر يضحكان سوية كما لا يستطيع اي شخصين آخرين

ان يضحكا. وتتحدث هي (١٩١٣)عن كيف كانت تزكزكه حتى يكاد يصرخ من الضحك، وكيف (١٩١١) كانا يتراكضان في الشارع (وتسبقه) . ويقول لها اكثر من مرة انه حينما يكون معها لا يضجر مطلقا ، في حين انه ليس هناك مخلوق بشري ، رجلا كان او امرأة ، يستطيع ان يصرف معه ساعتين او ثلاثا بدون ان يتمنى تركه لفترة من الزمن.

انا معك طفل في بيت امي

يشير الدكتور حاوي في دراسته الى ناحية مهمة في ادب جبران وفي حياته ، هي تعطشه الدائم الى عطف الام وحنانها ، والى حياة العائلة والبيت ، ويقتبس عددا من الاقتباسات التي تدل على ذلك في كتاباته ، ويقول ان حبه لحلا الظاهر التي كانت تكبره بعامين ، وعلاقاته فيما بعد بماري هاسكل وبنسوة متزوجات مثل ماري قهوجي وماري خوري ، هي ادلة ايضا على الشي ذاته . هذا الشي نلاحظه ايضا في هذه الاوراق .

فهو يحدث ماري (١٩١٤)عن المرأة التي «اغوته»(والهلالان هذان تستعملها ماري)، ويقول انها كانت ذات شخصية مغناطيسية ، وانها احبته فعلا حبا شديدا ، « وكان فيها الشيء الكثير مما في الام » . ويقول لها (١٩٢١) انها هي الوحيدة في العالم التي يحس معها بانه طفل ، بانه ابن . ويكتب لها في ١٩٢٢ : « لقد كنت دوما اتمتع باطايب مائدتك ، ياماري ، وكنت دوما تملئين صحني وكؤوسي . والآن ... لا اشعر بعد باني ضيف محبوب، بل بالاحرى باني طفل في بيت امي» . وفي رسالة اليها في خريف ١٩٢٨ ، يكتب لها عن اشتداد وطأة البرد في نيويورك ، وعن حاجته الى الدفء — ويقول : « ان قلب ام هو وحده يمكن ان يعطيني هذا الدفء . وهناك مثل هذا القلب . فليبارك الهنا هذا القلب ، قلب الام » . ويقول لها (١٩٢٢) ان كلا منهما ام للآخر ، كما يقول في مناسبة اخرى في العام نفسه انه قد تبناها، وانه يحب ان يكون اباها ويكون طفلها. ويسألها (١٩١٢) الا يحوم على الدوام من حولها كما يحوم الطائر من حول عشه ؟ ويكتب لها (١٩٢٣) مشبها نفسه واياها بالنهر والمحيط .

وتكتب له (١٩١٢) قائلة انها في زيارتها الاخيرة له شعرت ان فيه امرأة ، فيرد قائلا انها قالت له منذ اربع سنين انها شعرت ان فيه امرأة ، ويقول انه آنئذ لم يفهم ما الذي عنته ، وانه الآن انما يفهمه نصف فهم . ويضيف: « ان المتصوف ليقول ان المرأة في قرارة نفس الفنان هي مصدر قوته . واملي ان تكون المرأة التي فيّ امّا صغيرة » . وتسأله في العام نفسه هل يحب ان يكون امرأة ؟ ويجيبها : « ولماذا ليس امرأة ورجلا معا ، اذا كان بمقدوري ان افكر واحس واحيا ؟ رجل او امرأة — لا فارق عندي ».

كبر سنها بالنسبة اليه لم يثر له اية مشكلة ، بل لعله كان عاملا مشجعا . لكن التفاوت بينهما في الحجم كان يزعجه . وقد رأينا ان احدى الصفعات التي ذكر لها فيما بعد انها

كالتها له هي انها قالت له ان بعض النساء الامريكيات سيملن عنه نظرا لصغر حجمه . وروى لها اكثر من مرة سبب قصر قامته وضعفه الجسماني ، على الرغم من انه ينحدر من اسرة وسلالة قوية وكبيرة البنية ، وسرد قصة عن سقوطه في صباه وكسر كتفه مما ادى الى اعتلاله والى توقف جسمه عن النمو ولو بوصة واحدة طيلة حياته . ونرى تأثير قصره عليه نفسيا باديا في بعض احلامه . فهو يكتب لهـا في ١٩١٤ عن حلم يراها فيه تراقص « رجلا طويل القامة » وهي تضحك ؛ ويقول لها في العام التالي انه منذ بضعة اشهر تأتيه الاحلام كل ليلة بلا انقطاع ، وانه يرى نفسه فيها كبيرا ضخما ، وانـه يرفع احدى ساقيه ويشعر بانها جبل ، وينظر الى اصبعه فيراها بعيدة عنه جدا — ثم يستيقظ ، « وآه ، فاذا انا صغير جدا في فراشي » . (في الاوراق ذكر لاحلام عديدة ، من الممتع ومن المفيد لناقد ذي اهتمامات تحليلية نفسية ان ينظر فيها—كما في كثير من المقاطع الاخرى من اقواله ورسائله وفي تصرفاته).

كان في علاقته معهـا دائم الحذر والخوف « مما سيقوله الناس » . تدعوه (١٩١٢) بالحاح شديد الى البقاء عندها في بوسطن عند زياراته للمدينة ، وتعده بالا تخبر احـدا عن وجوده هناك . لكنه لا يقبل ، ويقول لها ان هذا سيجعل الناس يتقولون الاقاويل ، مما سيعود بالضرر على اسم المدرسة . وتحدثه (١٩١٣) عن رغبتها ، في حال موته ، بمرافقة جثمانه الى جبل لبنان ، بتخويل منه . يجيب : لكن تعرفين ما سيقول الناس . وترافقه ذات مساء الى منزله لتحضر اغراضا من عنده — « لكن ليس الى الطابق الاعلى ، لان الوقت بعد الثانية عشرة وفي البناية اشخاص ذوو افكار خبيثة ، كمـا قال : فهم حتما لن يصدقوا انك جئت اعلاه لتأخذي غرضا ما . وهكذا فاني وقفت تحت عمود الكهرباء ، على الطرف الآخر من الشارع ، وقرأت صحيفة التلغراف وصحيفة العـالم ، ريثما نزل حاملا الرزمة » !

هل فعل انسان لانسان ما فعلته لي ؟

بقي ان نختتم هذا العرض ، الذي طال اكثر مما كان مقررا له ان يطول ، بذكر تقييم جبران ، في ما كتبه لماري وفي ما قاله لها ، لهذه العلاقة بينه وبينها . فقد كان واعيا على الدوام ، خلال السنوات الطويلة وفي فترة الوئام وفترة الخصام على السواء ، لمـا في تلك العلاقة من فرادة ولما لها من اهمية في حياته ونتاجه ونظرته للاشياء . مرارا كان يعيد على سمعها انه لن يمكن ان تقوم علاقة كالعلاقة التي بينهما ، وانها لن يمكن ان تفصم ابدا ، على عكس علاقتها باي رجل آخر وعلاقته باية امرأة اخرى (١٩٢١) ، وانه لم يكن في حياته قريبا الى اي مخلوق ، رجل او امرأة ، بعشر معشار ما كان قريبا لها هي (١٩١٧). وماري هي الوحيدة ، يقول لها (١٩٢٢)، التي عرفها في حياته كلها والتي يشعر معها

بانه حر فكريا وروحيا ، وبانه هو هو الى ابعد حد. قوة تفهّمها (يكتب لها في ١٩١٣) هي التي تجعلها « الشخص الحقيقي الوحيد الذي اعرفه » . وهي قوة خاصة لتفهم خاص: ذلك ان الذين يتفهموننا (يكتب لها في ١٩١٤) انما يستعبدون شيئا ما فينا . « لكن هذا لا ينطبق عليك انت. فتفهمك لي هو افعم حرية عرفتها بالسلام والسكينة». ويكتب لها في رسالة اخرى في العام نفسه : «لقد حررتِ حياتي، والحياة بدون الحرية موت هي».

وماري هي واهبة الحياة (يكتب لها في ١٩١٤)، وهي شبيهة الروح الاعظم ، الذي يصادق الانسان لا ليشاركه حياته فحسب، وانما ليزيد في حياته ويضيف اليها . ومعرفته لها هي اعظم شيء في ايامه ولياليه ، وتبدو احيانا انها معجزة خارج نطاق نظام الاشياء الطبيعي . وفي العام التالي يكتب لها ان لقاءاتهما تجعله اشد وعيا لله، وان في ذلك الوعي تكمن حرية القلب الحقة . بدونها الاشياء تكتنفها ظلال المساء ، لكن عندما يتحدثان عنها فانها تبدو كجبال تستحم في نور الشمس .

وفي ماري مزيج فريد : عقلها عقل رجل (١٩٢٣) ، وفي الوقت ذاته يلقى فيها كل ما يود ان يلقاه في المرأة (١٩٢٢) . فلا عجب ان يقول لها (١٩٢٣) ان « ثلاثة اشياء عملت لي اكثر مما عمله لي اي شيء آخر في حياتي : امي، التي كانت مدهشة جدا وتركتني وشأني ؛ وانت ، التي آمنت بي وبنتاجي ؛ وابي ، الذي حاربني واستفزني للقتال. ليس بمقدور احد ان يطلب اكثر من هذه الاشياء الثلاثة او ان يجد اعظم من هذه الاشياء الثلاثة».

قال جبران لماري في ١٩٢٢ : « ان العلاقة بينك وبيني هي اجمل شيء في حياتي ، واروع شيء . وليس في حياتي فحسب . انها اروع شيء عرفته طوال حياتي . انها شيء ابدي لا يزول » . وكانا يتحدثان ذات يوم في ربيع ١٩١٤ ، وقال لها : « اني اعتقد ان عددا هائلا من الناس ، الذين ممكن ان يتطوروا ويتقدموا، انما يموتون فعلا لانهم لا يجدون شخصا مثلك يقدم لهم يد الخلاص . ليست المسألة مسألة المال الذي اعطيتني اياه ليس الا – لكنها مسألة الطريقة التي اعطيتني اياه بها – والحب الذي اعطيتني مع المال، والايمان، والاهتمام – واليقين ان ثمة شخصا يعبأ بي» . ويضيف : « اني اتساءل احيانا هل حدث في التاريخ كله ان فعل انسان لانسان آخر ما فعلته انت لي . انا لا اعرف عن احد ما » . وترد ماري بتواضع مميز : « لكن احدا لا يعرف عنك وعني ايضا . من المحتمل ان هذا حدث مرة بعد مرة ، وانه يحدث الآن ، لكنه لم يعرف آنئذ ، ولا يعرف الآن » .

لكن من حسن حظنا، فيما يتعلق بالعلاقة بين جبران خليل جبران و ماري هاسكل، انه صار بمقدورنا ان نعرف الآن .